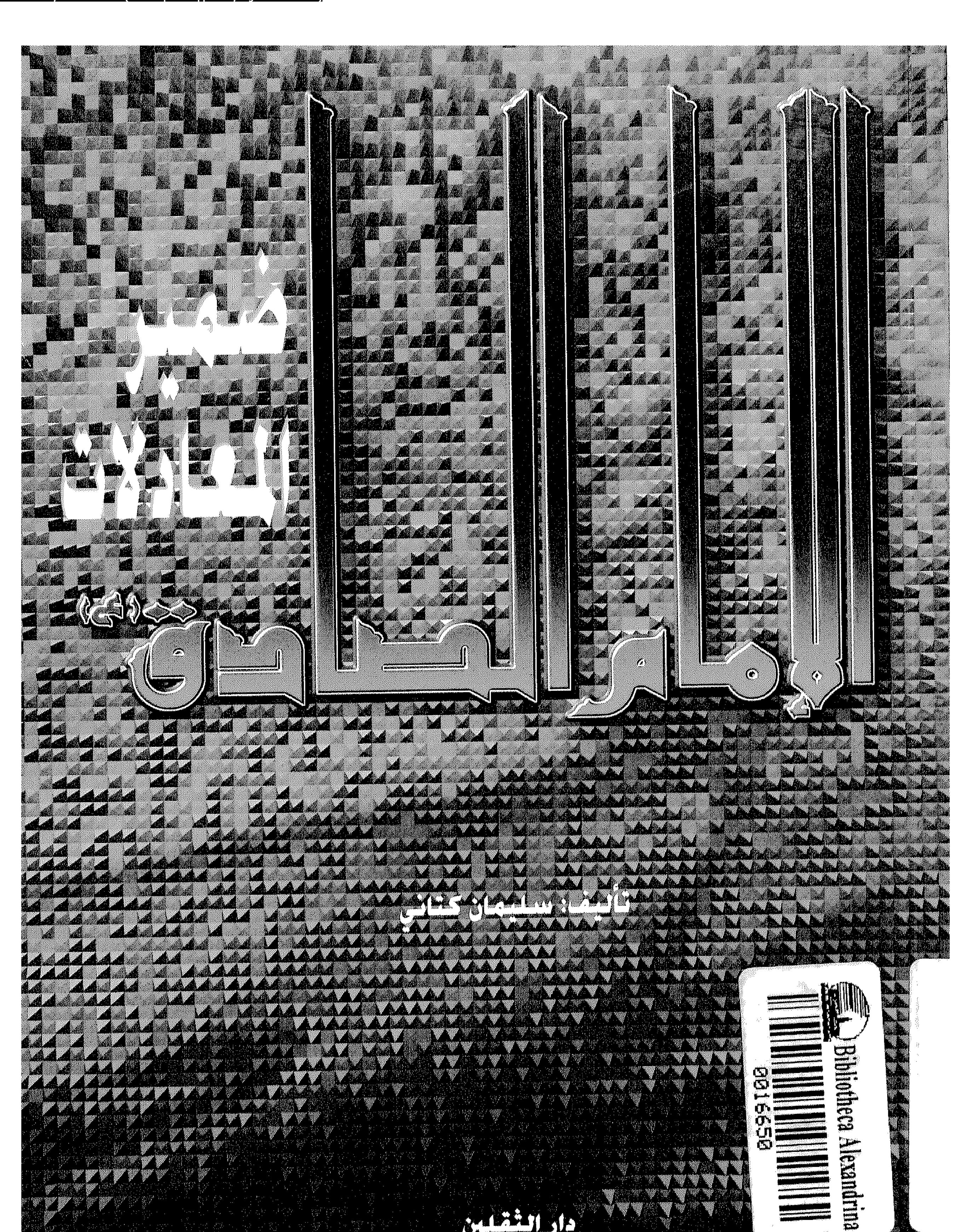

الإمام الصادق
ضمير المعادلات
تأليف: سليمان كتاني
دار الثقلين
بيروت ـ لبنان
Bibliotheca Alexandrina
0016650



الإمام جعفر الصادق

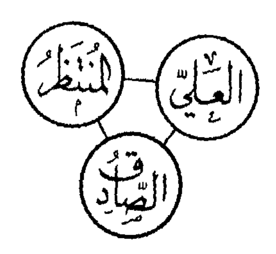
ضمير المعادلات



سليمان كتاني

الإمام جعفر الصادق ضمير المعادلات

الكتاب الذي نال الجائزة الأولى
في المسابقة الفكرية عن الإمام الصادق عليه السلام
وانه نقطة الوسط في الدائرة المفتتحة بالعلي
والمختتمة بالمنتظر



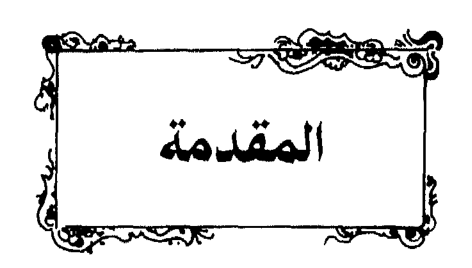
منشورات
دار الثقلين
بيروت - لبنان

الطبعة الاولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م



بيروت - لبنان - بوليفار الغبيري - حلف بنك الجمال - بناية عبد زين فارس
ص . ب ٢٥/١٧٩ الغبيري - تلفون وفاكس ٠٠٩٦١١٢٧١٦٣٠



المقدمة

بقلم: د. ميشال كعدي

يمر في التاريخ لحظات مضيئة تجدّد الإنسانية فيها الإيمان المطلق في قسامة الدّهر، كأنما خُلقت لغير دلالة. فهي شريعة، وسلطان قبل التشويه، ووجود بشري قبل الوقوع بضعف ورثناه، وقبل العافية الأولى التي نقرأ عنها في قلوب قبل الخطيئة، فدنّوُ من عظمة النفس، والتحام بمبدإ حيّ، وشهامة محتد، وأرومة أصل.

وفي الزمن ذاته وجوه طليعية قادرة، مُسّت بجناح العبقرية والبطولة، زالت عن دروبها ندرة العوائق، فغدت خارج الدهر، وتشارف الأعوام. . .

ثم يلذّ لك أن تتحدث عن أديب كبير، يفتش عن عظماء، جُبلوا بالمناقبيّة، وأهل إيمان تألّقت عيونهم بالنور.

من قدرته أن يقيم على ثمانينه الأمانات، وأن يكون ذا أثر موسوعي. مستلهماً في خشوع التأمّل، والشأن الأروع، في بيت الرسول العظيم وأهله، كأنه بدأ عمره في الجنة. ومن مهماته أن يشدّ الدنيا إلى فوق، صوب أبي عبد الله حيث الرموز العالية المنصوبة على شعف الإنسانية، وسامقات الذّرى التي أضاءت كربلاء، في سمو الرسالة،

فتوافرت له القوة من لدن الله، والعدّة للوضائع والأسفار.

الأديب سليمان كتّاني.

شال بمعتقد أهل البيت كلهم، على لُمع بصره، وخصهم بالرؤيا الباقية، فسلط آخر أسلاك عينيه على الإمام جعفر الصادق مسك ختامه.

الرجل منزّه عن خيانات الذاكرة.

غير مشوب بجفاف الثوابت، ترفده المثالية، ومفاهيم المجد والغلبة.

إنه الشاهد المفضّل، والمصدر الراجح.

يتعاطف في أقواله أركان الحكمة، وخطوط الصلاة، والفقه، والأدب، والإيمان الجمّ، ونزاهة المسلك، والتجرد والهمة الشماء التي لا تعجز لبانه، أما البطولة فهي في ترسيخ، وفداء.

لقد اندفع أديبنا الفذّ سليمان كتّاني في عدوه الصاعد، فتارة قبلته «محمد شاطىء وسحاب»، و«فاطمة الزهراء وترفي غمد» و«الإمام الحسن الكوثر المهدور» و«الإمام الحسين في حلّة البرفير» و«الإمام زين العابدين». أما «الإمام علي نبراس ومتراس» ففي عصب الأمة، على أن الحديث «يُسمع من ثقاته»، وطوراً عينه على الأئمة كافة والأنساب الشريفة والشمائل الأحمدية. فالرجل ثقة في أعلى المنازل، وضمير المعادلات في وسط الدائرة المفتتحة بالعلي، والمختتمة بالمنتظر، وقد تشبّثت في مثلث بهيّ اللقيات: العلي، المنتظر، الصادق.

عظمة الإمام جعفر الصادق، ضمير في ذات الأديب العبقري سليمان كتاني...

بلى! هو المعرّق، العروف، سليل الأصلاب العالية.

لقد أضاف إلى النسب غرّ الصفات والترفّع، وسقّى حياته من

الأهواء، ونقّى نفسه من الضغائن، وتنزّه عن الأباطيل، فتوحّد في قيمة الجوهر، من دون أقنعة أو مصانعة، وجعل الجوانيّة في مصافاة مع الرب متلمّساً وجهه ونور الحقيقة.

في أي حال، الإمام الصادق ركنٌ كبير في الدين، والعلم المنوّع، والفكر.

هو نبراس رئيس ولا جدال، ومشعل صلاة، تمجّده المهابة، والروعة، ومحاريب القداسة، وحسبه في الإسلام من الشجرة المثلى القائمة على العدل، والعلم الذي يتجسّد في شخصيته التي تجلّت معالمها بوضوح في الدين، وفي الفقه، وفي الفيزياء، وفي الكيمياء، والطب، فهو جامعة قائمة بذاتها، ورسالة وإمامة. تجمع الحرز، والجوهرة، والوعد، والباقر، وكل خطوط الإرتباط.

استراح الأديب كتّاني قرب إمامة الصادق، يناجيه في دخوله وخروجه، ومن ثم راح يناجي إمامة جده الإمام زين العابدين، وإمامة الوالد الباقر. أما السنوات فقد مثّلت حلم الصغير، الذي لم يدر أحد حين ارتفع صوته بالبكاء، أنه سيكون من العظمة بمكان رائع، والوعد بمكان ملفت، والصادق بمكان بهيّ...

لكنّما همّني الهناءات في المضمون الغني، ينقب عن أطرافها في أمة شغلت الأستاذ كتاني ولما يزل، بياناً، وتاجاً، وأنساباً، وجمعاً وغير ذلك.

فكيف لا نحسب الأصل، ونحن منه الينابيع، والندى، فإذا المهاجر غرر في المكارم وأوضاح.

مع الإمام الصادق، العلامة، ترى الأمة مشدودة إلى الإنسانية برباط كتانّي، وسليماني النهج، فتغدو مع الإمامة الكلية وحدة، وريادة مجتمع. ثم تتحول الأهداف التي زرعت في نفس الصادق المؤمن، معالم علم

يتنوع على روامه، أما جمع الأئمة فقد أدرك الرسالة، والقيم انفتاحاً على أصالة، وتنوع ثقافة على مبادىء مجموعة حول مبدإ واحد، برعاية أبوية، متأصلة، ورشيدة من دون اعتداد وكبرياء، من شأن ذلك ربط الأمة والأخلاق والدين والثواب، ليدركوا الدرب، ورتاج الإيمان الرفيع الذي منه تبدأ معرفتنا بالله، وبالعلوم الأخرى كافة.

في كتاب الإمام جعفر الصادق.

أكثر من وجدان للمعادلات، وأكثر من مقصود صحيح.

هناك ميزان عدل لا يحيف، ورؤيا في الوصول إلى العرض، وكأس صراح لم تُشَب بمزاج.

وهناك عبق من أولي الثياب الطاهرة، النقية، الذين لهم في الزمن قصد استقامة وفخار، حيث تلقّن البلاغة في النهج ليحلو الحصاد، والصدى في الأنشودة، والعطر الساطع في البال.

قلم الأديب الفذّ سليمان كتاني يذكّرني بسيد البلغاء الإمام عليّ بن أبي طالب، وبأطروحتي الأولى عنه، يوم أقبلت عليه فأصبت شبعة، وتروّيت من سائغه بعد عطش.

كما يذكّرني بضرم الشذا، وصدق النجاوى، وطريق الهداية الآتي من نهج، وقرآن كريم، عبر صلاة الغار لأبي الريحانتين. وفي أي حال نحوز الرضا جماً.

على درب الإمام جعفر الصادق، نتشمّم ريح النبوّة، ومشعب الحق، والرأي، والحصاة، والمناهج النيّرة، ثم نعلم الموضع من التقوى، وليلة الهجرة التي بهرت الكينونة بالشجاعة والوفاء.

الإمام الصادق.

هذا الذي ما أدلى بغير الحجة، عالم نافذ في الأشياء، لا تتعوّج

فيها. فقد صوّره الأديب كتاني بطلعته الغرّاء، ومحاسنه، أما القيم فهي زهراء، وبرود مفوّفة.

يهوّدك إبداعان.

إبداع الأديب سليمان كتّاني، وإبداع الإمام جعفر الصادق الآتي من نبوّة ومجد. فيأتي اللفظ المقطّر جارياً مع الحديث صفاء، ونغماً، وشجواً سرمدياً على حروف النهج، وإشراقاً على حروف القرآن المنزل كريماً.

أي منفسح لآل البيت في الجنان؟

لكم سعينا إلى مآدبهم في مجاعات الفكر، وعظمة القول، على أنهم ينشرون الكلام وافياً للحق في أحكامه، ومرضياً للشهادة، ومدعاة للتأمل، على منطق رخيم الحواشي، لا هراء ولا نزر.

في أي حال.

بيت الرسول الأعظم، وآله متحف سرمد.

فهذا الإمام الصادق، قد فتّش مع رهط من الأئمة في مناجم الماس، على كرههم للمال والغنى المزيّف، حتى رصّعوا للزمان جبهة زهراوية، ومحاريب تزار كلما نهضت للرقاع يراعة.

معهم تتكلم السماء.

وتُكشف الأقنعة عن المغلق، ويُبطش في العلم بباع واسع وبسيط، ويؤخذ في مسالك اليقين، ويُحكم بالعدل والصواب، وتوطد الشجاعة والرأي الحصيف، والعقل الثقيف، وتُطرح الأمور بالحزم والمكانة.

أما مع الأديب سليمان كتاني.

فقد جرى فنّ الكتابة على مدد وفير، فالأداء كان متخيراً، والصورة مشرقة تعيش في روائها.

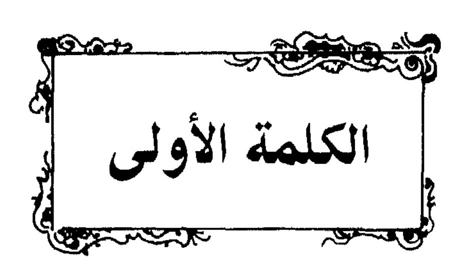
وجد مسلكاً نهجاً إلى النور، فسلكه وسعى بكل ما أوتي من قدرة أن

يزين المعاني باللفظات الوضاء، فكان مصقول الجوهر، مشدوده إلى الدّعة والدقة.

من ميزات فنه أنه مباشر يواجه الأشياء بتعاطف ويسر، هدفه الأمة والإخلاص والثقات التي تغمر نفسه، ناهيك عن سمو الإنسان فيه.

أما كتاب الإمام جعفر الصادق، الذي كتب بماء العيون إلى الأمة فلعله مكافأة لقوم يضرعون.

د. ميشال كعدي
١٩٩٧/٣/٢٤



الكلمة الأولى

إنه الإمام جعفر الصادق، ولا يجوز اعتباره إلا ركناً متيناً من أركان الإسلام: في الدين، والفقه، والعلم، والفكر... ونبراساً أساساً في كل روعة نأخذ منها مبادىء تركيزية لكل عمل نعتمده لبناء مجتمعنا العظيم.

ويطيب لي شكر العلامة السيد عباس علي الموسوي، عميد مكتبة أهل البيت العامة في المدينة الناهضة ـ النبي شيت ـ على تخصيص دورة مختصة بالإمام الصادق، يتبارى فيها الأدباء والمفكرون في نشر القيم الجليلة التي كانت فيضاً في سيرة الرجل العظيم، والتي هي كلها ـ في شمولها المطلق ـ حاجاتنا الماسّة لبناء مجتمعنا الكبير: علمياً، وفكرياً، وسياسياً، واجتماعياً، واقتصادياً، وإنسانياً، وحضارياً.

إني بدوري أركز القول: لن يكون لنا ـ في شرقنا البائس ـ ما يجمعنا إلى بساط من العزة، والكرامة، والجمال، ما لم نأخذ الإمام الصادق، بكل ما تأودت به: روحه، وعيناه، وشفتاه، وكل أحاسيسه الصادقة والجلّى، فهو كله ـ في مسلكيته الفذة، وفي منهجيته العبقرية ـ للتطبيق الكامل المتلازم، من دون أن يفرط، أو يتجزّأ، أو يُعدل، أي أنه كله في بناء المجتمع السليم، والصحيح، والمنيع... وإلا، فإن المجتمع في دوامه، هي ذاتها في حالات التفكك، ومعاناة الإنفراط!

سيكون لنا من هذه الدورة المفتوحة أمام تلمساتنا الذهنية، وتحسّساتنا الفكرية، والروحية، والذاتية، ما يشهّي فينا العزم للدخول إلى

المحراب الوسيع المداخل والمخارج أمام خطوات الإمام الممتلئة بعزم الروح، وجلال العقل، وفسحات البيان.

وسيكون لنا أن ندرك: أن المحراب الفسيح والمعزّز المداخل والمخارج، إنما له سقف واحد رفيع وشفاف، تمجّده روعة الحق، ومهابة الصدق، وجلالات الفضاء المتناهي بالتعبير عن هالة سرمدية، هي غلاف الكون، وهي كل النور الذي تغرف منه عين الإمام... وإنما ـ لهذا المحراب ـ أعمدة ثلاثة لا غير، في وضوح التعبير عن المحاور التي يدور عليها جهد الإمام.. وإنها ـ فقط ـ جوانبه، أو بالأحرى، بوابات المداخل إليه:

١ ـ الجانب الديني ـ الفقهي.
٢ ـ الجانب العلمي ـ الفكري.
٣ ـ الجانب الاجتماعي ـ السياسي.

ولكن الجانبين الأولين ـ وإن يكونا الركيزة الجلّى في بناء الشخصية المثلى للإمام ـ فإنهما سيلتحمان التحاماً مزجياً «كيميائياً»، يكون إطارا سنياً للجانب الثالث وهو المجتمع الإنساني الذي عليه أن يزهو فتتمجّد به عين الخالق العظيم، وهكذا يصير الإمام ـ من التحام الدين بالعلم، والفقه بالفكر ـ ضمير المعادلات، وتصبح الجوانب أربعة:

١ ـ الجانب الديني ـ الفقهي.
٢ ـ الجانب العلمي ـ الفكري.
٣ ـ الجانب الإجتماعي ـ السياسي.
٤ ـ ضمير المعادلات.

أما الآن، فإني أتعجّل الدخول إلى الإمام ـ من البوابة الثالثة التي هي «كيمياؤه» دخولاً سريعاً يغلّف التعارف المختصر بقليل من التلميح والتقييم. وبكثير من الإيجاز، على أن يكون التحليل والتقييم بعد كل تبسّط تدخل فيه سيرة الإمام.






المدخل السريع

الإطار العام
الإطار المركّز
لا بد من التمهيد
الرسالة والإمامة في شبه دراسة
الحرز
الجوهرة
الوعد
الباقر
خطوط الإرتباط







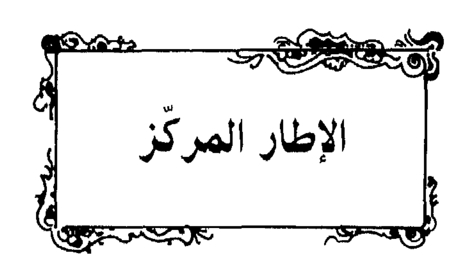
الإطار العام

إن الرجل الملمّ، والذي هو الإمام الصادق، كان وحده موسوعة علمية، وإن أسباباً وأوتاداً جليلة كانت وراء طاقاته التكوينية المتينة، ساهمت في شحن المعارف الوسيعة إلى عقله المركّز، وإرادته المعنصمة بالمران الأصيل، ونفسيته المبنية من حواشي الفهم المطلق.

ولكن الأسباب والأوتاد ـ وقد لمّحت عنها بلمح مفرد ـ تبقى وحدها العظيمة والمحتاجة إلى كثير من الشرح الدقيق، فالإمام السادس، وهو نقطة الوسط في الدائرة الإمامية التي رسمتها فطنة النبي العظيم لسياسة مجتمع الإنسان، وتطويره بكل ما ينتجع به نحو الكمال، هو الآن في مهمة الصادق الواصلة إليه من جده علي، عبر أبيه الباقر، وها هو العازم الآن على التجرد لرفع قيمة العلم وتركيزه في المجتمع تركيزاً لا يجوز إلا أن يكون متمادياً من جيل إلى جيل، لأن العلم وحده ـ في تماديه المتواصل، وتركيزه الدائم ـ هو الوجبة الكاملة والتثقيفية في كل تحقيق حضاري يزين الإنسان بالمجتمع الإنساني الجميل.

تلك هي الأسباب والأوتاد، أشرت إليها بإيجاز، وهي المشتاقة إلى الإسهاب، فالأسباب الأصيلة هي التي نوّهت عنها بالتلميح الصغير، أما الأوتاد فهي في الإمامة المرسومة لتنفيذ المقاصد، بمحو الجهل من عب الأمة، وساعتئذ فإن الوعي الكبير هو المنتظر في ارتباط الخط الدائري، والتحامه بالبهجة الكبرى:

أشير إلى كل ذلك وأنا أحضر نفسي للدخول إلى محراب جليل، وفي يقيني أن أجعل خشوعي مسعفي، أدفعه أمامي، وأنا على بوابة المحراب أقول: سبحان الله الذي زيّن عملاقاً من عمالقة خلقه بموهبة بليغة تسوّرها محيطات الجمال.



الإطار المركّز

يتشكل الإطار المركّز على ثلاثة مداليل يتميز بها الإمام:

أولاً ـ اعتبار الإمام جعفر الصادق اسماً مؤلفاً من ثلاث كلمات، بلاثة مداليل تتوحد متلازمة في إخراج هذه الشخصية العظيمة:

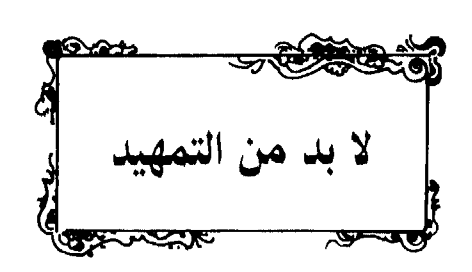
أ ـ الإمامة هي الجلباب، وأكاد أقول: «السحري»، إنها إطار بحد ذاتها، تتناول من يرتديها وتلفه بكل شعاع ينبعث منها، إنها قضيب من ضلوع الرسالة التي طرحتها عبقرية الإسلام.

ب ـ جعفر هي الكلمة الوسيطة في استيعابها البنية الذاتية الضئيلة اللحم والدم، ولكنها أصبحت مركز الثقل في بروزها النامي والمحقق شخصية متينة الحواشي، أما تجلببها بالإمامة، فهو الذي تمّ به تطريز الإخراج والتوجيه في تنسيق قوى العقل المتين الذي ازدان بالعلم الغزير والرؤية الصافية.

ج ـ والصادق ـ كلمة وصّافة، إنها الصباغ العجيب، أفرزته الإمامة من غدتها، يندغم بها العزم يضفي على «جعفر» كينونة مصبوغة بلون الأهداف الكبيرة التي عينتها رسالة الإسلام.

ثانياً ـ اعتبار كل طاقات الإمام جعفر الصادق ـ وإن كانت منوعة المواهب والمجادل ـ موحدة المقصد، والإتجاه، والمخرج، وهي تصب كلها في بوتقة واحدة هي بوتقة الاجتماع.

ثالثاً ـ اعتبار «الإمام جعفر الصادق» خطاً سياسياً قائماً بذاته، ولكنه ملون بولائه الإمامي في إدارة شؤون الأمة إدارة علمية اجتماعية متنامية ومستقبلية، هدفها الأوحد: صيانة الأمة من الجهل، وتحضيرها للبلوغ المنزّه من أي عيّ!!!



لا بد من التمهيد

إن الاسم المثلث الأركان، هو «الإمام جعفر الصادق»، ولقد قلت بأن الاسم لا يفرط، فبالملازمة يتم التعرف إليه رجلاً عظيماً، لبس الإمامة وتجلبب بها، فازدانت صفاته، وتمتّنت عبقريته، وتوضحت أهدافه، فإذا به ظاهرة نادرة المثال بإحاطاته العلمية، والفكرية، والأدبية، والبيانية، والتي كانت شفيعته إلى اجتماعية رائعة التوجيه، وعميقة المؤدى... وكانت ـ أيضاً ـ وسيلته في تمكنه من جعل بلاطات الحكم المتشبث بجبروت الظالم المستبد، تنحني لائثة أمام وقاره المهيب، مفسحة له مجالاً لتحقيق سياسة بساطها العلم الوسيع، وطيّاتها تحضير ثقافي منيع، يؤدي بالمجتمع إلى اكتشاف طاقاته الإنسانية الرائعة.

أسباب وأوتاد، تجمعت حول الاسم المثلث الأركان، فإذا كان لنا ابتغاء التملّي من التعرف إليه، فلا بد من استشراف مفتوح، يلمّ بهذه الأسباب والأوتاد التي انجدلت وأخرجت هذه الشخصية الفذة بهذا اللون، وهذا المثال!

سيكون هذا الاستشراف المفتوح مطلاً على الرسالة والإمامة اللتين هما ركنان جليلان من أركان الإسلام، ولن يكونا ـ أيضاً ـ غير ركنين جليلين بنيت عليهما وبهما شخصية «الإمام جعفر الصادق»!

الرسالة والإمامة في شبه دراسة

أقول: إن الإمامة، بمعناها العظيم ومحتواها العميم، هي المظلة المستريحة، تنشر فيأها من ضلوع ستائرها: فهي المُظلة وهي المُشعة في آن واحد، لقد حبكت حبكاً متيناً ـ حبكتها الغاية والحاجة، لتكون فيهما كل الوقاية ـ إنما الرسالة العظيمة والمفجوجة من مطاوي الحق، هي التي حبكتها من ضمير الإحتراز.

هكذا فلنعتبر الإمامة تحضيراً خطيراً لتعهد رسالة ما ولدت من غفلة الأيام، بل من احتكاك مفتون بمصدر الإلهام، وإنها ما ولدت لتنظيم ساعة واحدة من عمر الزمان، بل لتنظير مبين يدغم عمر الزمان بعمر المكان. . . يا للرسول العظيم، يخشع في غار حراء، حافراً ساعات الزمان، على جدران المكان، ، ، فإذا بسقف الغار وصلة أرض بسماء، وإذا بإنسان الجزيرة ينفض عن بدنه الغبار، ويروح إلى تحقيق ذاته بتوسيع الذات. . .

ويبرز إلى نور مجتمع جديد كان ينام بين سرابين: سراب من مكان، وسراب من زمان. . . وتعتزّ الرسالة بأنها أنهضت أمة طال نومها تحت الرماد ـ وإن الحقيقة لتقال: من أجل الأمة جاءت الرسالة، ومن أجل الرسالة تبعث الأمة. . . إن الرسالة ـ الأمة، وإن الأمة ـ الرسالة، هما الكلمة الموحدة في ضمير النبي العظيم. . . والأمة هي المجتمع الإنساني، والرسالة هي الحق الذي لا يفتأ يبنيه. . . والإنسان هو الذي يقرأ الرسالة فيحييها إذ تحييه، وبه ـ عمياً ـ تنشل الرسالة!!! ولكنه ـ بدونها ـ تنشل مآتيه. . .

ولكن إنسان الأمة ـ وهو إنسان محمد الرسول ـ فإن عمره، في بال الرسول، من عمر العميق من الدهور: إنه إنسان هذه الأرض ـ أرض محمد، أرض الغار الذي اندفقت من سقفه كل النجوم وأضاءت عقل وروح محمد... إنها الأرض الطيبة التي أنشأت ـ عبر التاريخ المديد ـ الإنسان الطيب الأرومة... إنه إنسان محمد، إنسان الجدود الذين انداحوا فوق كامل هذه الأرض، وامتزجوا بها، فأخصبتهم وأخصبوها، فكانت أماً لحضارات عريقة، تلقحت بها كل أمم العالم القديم، وأظنها ـ حتى الآن ـ لا تزال تنعم باللقاح...

لقد كانت حضاراتهم أنيقة، أشرقت بأبجدية الحرف: زراعة، وسفناً، ورصداً للنجوم، وعلماً، أكان فيزياء، أم كيمياء، أم صناعات شفّت بالزجاج، أم طباً، أم أرقاماً تكشفت بها فنون الهندسة في ضبط المداميك، ونقش الحجارة بالشاقوف والإزميل، وتوظيف عمليات الجبر والحساب، والإستعانة بالنار، وتحديد الأرض بعلوم الجغرافيا المنقوشة: بالاصطرلاب، أو الغوص بالفكر إلى حدود الفلسفة...

أليس هؤلاء كلهم هم أجداد محمد: من بابليين، وكلدان، وآشوريين، وكنعانيين ـ فينيقيين، وآراميين زينوا الحرف الذي نطق به المسيح بن مريم، حتى إذا ما جاء محمد، أبهرهم بقرآنه الكريم.

حقاً إنهم الأجداد الطيبون الموصولون ببال محمد وصلة الأرض بغار حراء.. وهم الجذور الذين يستمرون موصولين بالأمة مهما طال الزمان، ومن أجل الإستمرار بهم أمة هادية تمّ انسكاب الوحي عليه برسالة تجمع الأمة وتندغم بها... وتنشلّ ـ ذريعاً ـ إذا يُفَكُّ الاندغام!!

ولسوء طالع الأمة، وقع الانشلال الذريع بعد أن فُكَّ الاندغام، إثر وهن قديم أَلَمَّ بالأمة، قصّر وعيها ـ آنذاك ـ عن تداركه قبل أن يحصل، فتجمد عنها المجد الذي صاغته، ليبقى لها منه وَشم هو المحفور في دوحة التاريخ!! إن الوشم هذا هو الذي ائتمّ به عزم النبي، وراح يستقرئه

بجهده وشوقه الروحيين، ويستجمعه من كل ألوانه الأبجدية المبعثرة هنا وهناك: في نينوى، والشام، وبغداد، وأريحا، وحتى في عيون ومفاصل الأصنام المشرورة في مكة حول الحجر الأسود.

لقد تكشّف للنبي الغوّاص خلف جوهرية الخصائص: أن الوشم الباقي، هو ابن الأزاميل التي صاغتها الأمة، ثم تلهّت قليلاً عنها، فحطّم التلهي ـ بغباوته القاسية ـ تلك الأزاميل، وبقي الوشم الجليل يحرس الأطلال!

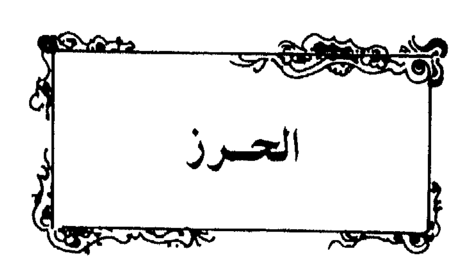
والنبي العظيم الغارق في دهشة الوشم، غمره غار حراء بوشم آخر، ليس له من لون غير لون الانبعاث... وهكذا راح يهتم بأقلام المغازل، يفتل عليها خيوطاً لجدائل، يزنر بها خصر الأمة، كي تعود مجدداً في انبعاث رزين، تستأنف به ارتباطاتها القديمة بالحياة النامية، والناهدة إلى تحقيق حضاري سليم.

تلك هي الرسالة، يطل بها العهد من غار حراء، تزنر الأمة بزنارين متكاملين ومترافدين بالشعار، حتى لا يعتريها أي عثار: الزنار الأول هو التديّن بالله والاستعانة به في برزة الحق وروعة الأخلاق. أما الثاني ففي التقيد بمنظومة الإمامة المتسلسلة من حقيقة المصدر، يرسخها المران بالصدق، والعلم الكامن في جعبة الفهم والوعي وروعات الإتزان. أما العلم، فهو للأمة منها ولها في الميراث، فلتفتش عنه لتغتني به، وتزيد عليه، فليس غيره في محو الجهل، وتنوير الذهن، ومسح الذات بالدهن المقدس، وتحقيق الحضارات التي هي خلود الله في مجتمعية الإنسان.

ولكن الإمامة تبقى دائماً مشتاقة إلى تجديد شجاع يوضحه هذا القول: إنها علم من علوم النفس الزكية، تفتش به عن كل ما يوسع مداركها من حق وخير وجمال، لأن الصفات المميزة التي هي من احتباءاتها، ستكون وفيرة لديها من وجوب إحاطتها بمجمل العلوم والمدارك، حتى يتسنّى لها شرف النشر، وشرف البذل، وشرف السخاء

وشرف الإلمام والإحاطة.. فتلك هي مقوّماتها المفروضة عليها للإكتمال، تغدقها عليها الرسالة، وتلك هي شروط السياسة، توفرها الرسالة، تحقن بها عزم المتسلم تسديد خطوات الأمة، بتقويم الإنسان، وتصويبه بجلاء البصيرة...

أما لماذا يكون للإمامة هذا التخصيص المدلَّل بوجاهة الإمتياز؟ فلأن النبي العظيم في إحاطاته قد اقترحها حرزاً.



الحرز

أيكون الحرز الذي هو بمعنى الكسب النفيس، أقل من جوهرة لا مثيل لها، تُخبَّأ في حصن منيع، حتى لا تنالها أصابع النهب!

ولكن الجوهرة هي التي يشير إليها الحرز. . . فإذ ما نلملمها بإشارة التوضيح ندرك، الحاجة إلى مناعة الحصن، وَنرَى شناعة النهب في أصابع الضبّ! أما الجوهرة، فهي الأمة التاريخية التي وجدها النبي الكريم - في اختلاءاته الوسيعة - قد طاشت عن تحقيقاتها النبيلة، فخسرت مناعتها، وبالتالي كرامتها، ولم يبق لها - من ممرات الزمان - إلا فراغ تذوب فيه قيمة الإنسان!

وهال النبي فراغ يرمي الأمة فيه إهمال مزمن يجردها من الإنسان الذي هو طاقتها المثلى في الحياة، وقيمتها الكلية في الوجود. . . وهل للحياة معنى صحيح بغير إنسان صحيح لا وجود له إلا في مجتمع صحيح اسمه الأمة؟! وهل تكون أمم الأرض كلها غير عناقيد تعيش بها كل عريشة بمفردها من عرائش الكرمة، فتغذي كل واحدة منها عناقيدها، بخصب متوفر في مساق بدنها، فتنمو العناقيد، وتحلو، وتعذوذب، ليكون للعريشة قيمة حياتية لا توفرها لها إلا العناقيد المعذوذبة؟!

وصمم النبي الغني بعزم الروح ومتانة المنطق، على توفير النجدة للأمة الغافية في مهدها الكسلان، فاستنزل لها - من قبة الغار - حجارة مقصوصة من أعلى السور، وراح يبني بها قلعة منقوشة بقرآن، وقال لها:

ادخلي الحصن، وانضوي إلى ذاتك،

وأصغي إلي بأذنك التي سدها عليك هوان الدهر . . .
أريد أن أبنيك من جديد،
وسأظل أبنيك إلى أن تعود إليك أنوار الصباح.
لقد كان لك منه كثير من اللألاء . . .
فشدي حقوبك الآن واسجدي معي،
حتى تذوب من أذنك أغبرة الوهن!!!

وبينما كانت الأمة المستدرجة من غفلات الوسن، تسجد، وتصلي، وتهتف مع بلال: الله أكبر . . . كان النبي الكريم يختلي بفتاه العلي، من دون أن يشوّش الحسان عليهما هذا الاختلاء.

لقد كان الحسين يلعب بعثنون جده، بينما كان الحسن رابضاً على الأرض وكفّ أبيه بين يديه يستجليها عن طالع الغد. . . أما النبي الصامت، فإنه لفّ الحسين إلى صدره، وتمتم:

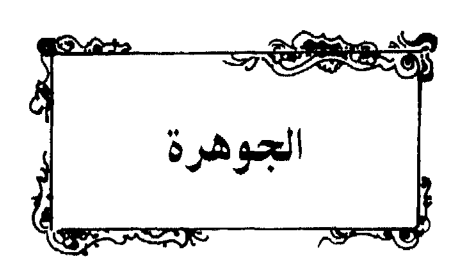
إنه بين يديك يا علي طالع الغد،
أما الأمة التي هي لنا منذ قديم العهد،
فلنبنِ لها إنسان اليوم وإنسان الغد،
فكن أنت ـ يا نجيّي ـ قاعدة الحرز المصمَّد،
في إمامة معصومة الطهر ومعصومة اليد،
ولتكن ـ كشهور السنة: اثني عشرية العدّ،
حتى يطيب لها الكسب، ويصحّ لها الجهد،
ولتكن: دائرية الطول ودائرية العرض ودائرية الوعد،
وهكذا ـ يا إمام ـ وبعد لأي الدهر ـ يبقى الجهد
يا نجيّي، المنتظر!!!

هكذا أقترح للأمة خطٌّ احترازيٌّ مرتبط بأهل البيت، كدائرة خاصة، يتواصل فيها الجهد النبوي المتمادي بكشوفاته التاريخية، والعلمية، والروحية، يتملّى منها كل إمام. بمفرده ـ بتمرس جاهز وحي ـ.

وهكذا أيضاً يكون للأمة تحضير ممنَّع بسياسة واعية، وراشدة، ومهتمة، ومعصومة، تنشر العلم الذي تحرزه، وتقدسه، وهي تنميه لتجعله ملبِّياً حاجات الأمة إلى كل تحضير ثقافي ـ حضاري ـ روحي. كان لها بعض منه قبل أن تتعثر!

بعد عدة أشهر، كان عيد الغدير، أو يوم حجة الوداع... كانت الأمة محتشدة في حضورها المستكين... تناول النبيُّ الكريم علىا من إبطه اليمين... عرضه على جمهور المودِّعين وهو يقول:

من أنا مولاه فعليٌّ مولاه،
من يحبني فليحبه...
ومن يبغضني فليبغضه...
إنَّ لكم به
حقيقة الحرز.



الجوهرة

منذ لحظات ـ في المقطوعة السابقة وعنوانها «الحرز» ـ جاء النعريف عن الجوهرة بأنها الأمة التي هي المجتمع، الذي هو الإنسان. . . ولكن التعريف لا يقصد إلا الأمة المحرزة الفهم الكبير المحقق مجتمعاً صحيحاً لا تندرج به إلا سوية الإنسان. إن الفهم الذي هو نتاج العلم، هو في جلال الدائرة العظيمة المتكفكف بها المجتمع النامي بأريحية الإنسان. سيكون العلم. . والحالة هذه الإهاب الجليل الذي ترتديه الأمة وتصبح به في حقيقة الجوهرة.

أما العلم، فلا قيمة له بحد ذاته، فهو كالبهار المعروف بعين البقر، لا قيمة له إلا باندماجه بصحون الموائد، وعند ذاك تعيش فيها ـ هذي الصحون ـ اللذية الأخرى المتطيِّب بها طعم الدسم. . . تماماً كاندماج العلم بطيات السرائر، فإذا بالإنسان تفتق فكري ـ اجتماعي آخر، تستنير به عين، ونفس، وإبداع ملون.

من هذا النوع النفيس قدم النبي الجليل الحجى، للأمة التي ضاعت عن حقيقة الصراط، رسالة تعيدها إلى حقيقة الصراط، قوامها علم مجرد، تكشف به عتماتها، وتلملم به إنتاجها الحياتي ـ الفكري ـ الروحي المتناسق بالإبداع. إن الرسالة ـ والحالة هذه ـ هي الإهاب الجديد المجلبب الأمة بكيميائية فاعلة تنقلها من الخمول إلى البعث المتحرك بجمال الجوهرة!

والحقيقة أن الرسالة هي دماج تام بين العلم واليقين، أي أنها انبثاق من نور محتك بقطبه، والنور هو الحق، والقطب هو المصدر، فإذا كانت الرسالة تعبيراً عن مجال، فإنها الجوهرة الثمينة التي لا قيمة لها إلا في حقيقة التفاعل الناقل المجتمع من لا مجال إلى مجال.

ولم يغب عن بال النبي واقع الأمة، فهي بين يديه في ظاهر الكشف، سيكون لها أن تصغي إليه بإذن لها بوق صغير الحجم، أما عمق القرار، فهو بحاجة إلى حفّارين مجهّزين بأزاميل العلم، يعمقون الحفر إلى قعر آخر، هو في النفس مجال القرار.

وانكفأ النبي إلى ذاته، وتحت عينيه إزميل مسنون الشفرة، وهو أعمق من ألف دهر... لقد رأيناه يجتذبه من إبطه، ويربط به الأمة بسلك الإمامة التي هي ـ وحدها ـ المتمكنة من التحلي بالتمرس وصدق المران، ليكون لها ـ من جيل إلى جيل ـ جمع العلم، ومسح الأمة به، فتتجوهر مآتيها، وتتقيّم معانيها، ويتمتّن وجودها في ساحات الرهان.

وبعد انفكاك النبي من رباطات الأرض، وانتقاله إلى الفسحات الأخرى التي هي إشراف مطلق على الجوهر المتمنطقة به طوية النفس النامية به وجودية الإنسان في مجتمعية الإنسان، راحت الإمامة إلى تسلّم مهماتها الجليلة وتنفيذها بقدر ما تتيح لها الظروف الصعبة والقاسية. وهكذا بقيت الأمة بين يدي الإمامة، تأخذ منها جهداً معصوراً من القهر، والكبت، والحرمان، في ظل سياسات مكانية محلية، تتحلّل من نزعات الروح التي تتعزّز بها قيمة الإنسان. ولقد تحسّسناه ـ هذا الجهد النفيس ـ يقوم به الإمام الركيزة، ونال عليه قبلة على رأس نصلة غاله بها ابن ملجم!!!

ليست لنا الآن عودة إلى جهل كان يجلبب أمة النبي بتعاسة جاء النبي يغطيها بآيات قرآنه... بل لنا كل الأنس بخط الإمامة تشرب العكر كله، من دون أن ينسى أنه موكول إليه التفتيش عن كل علم ينير ذهن الأمة

ليخلصها من عقم الجهل الذي يمزق بدنها ويطرحها شلواً في الساحات!

وابتدأ التفتيش عن العلم ونشره: مع الإمام علي، في إنشاء الأندية العلمية والفقهية ـ بمعاونة ابن العباس ـ ولقد جاء كتابه ـ نهج البلاغة ـ أفصح لسان في ذلك العصر الجائع إلى ربط حرف بحرف، وفكر بفكر، ولسان بلسان!

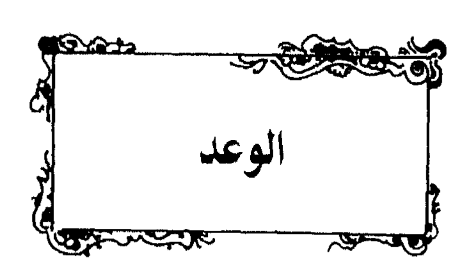
وامتد الجهد إلى الإمام الحسن، بذات الوتيرة، مستحيلاً إلى نفس زكية أحاط الأمة وخلصها من إهراق الدم بحروب أهلية لا طائل منها إلا الخراب والدمار، وهكذا عقد صلحاً مع معاوية، متوخياً تحسيس الخط السياسي بوقار مسعاه المنتهي إلى حفظ الأمة سالمة من الويلات التي يطمرها فيها خبل الطغاة!!!

أما الحسين، فإنه لم يقبل إلا أن يزرع نفسه في كنه الأمة، كما يُزرع الحمير في عب الطحين، فينقلب هنا خبزاً شهياً، ويصير هناك نبلاً أبياً تعيش به النفوس الرافضة قيداً، وذلاً، وعاراً، وبهتاناً!!!

أما رابع الأئمة ـ **زين العابدين** ـ فكان حنيناً إلى جده الأول، أخذ الأمة كأنها الجرح، وصبّ عليه زيتاً مشهّى، يحوِّل الجرح كله إلى دعاء بلسم، **ثم وعدها بيوم من أشعة** تكشف به نفسها فتستنير وتعرف أنها بدأت تقرأ!!!

وجاء الوعد مع ولادة الإمام الخامس المعروف بالباقر، فراح إلى العلم يفجّره، وبدأت الأمة تتراسل به على أمل أنه الغد الآتي إليها مع كل فجٍّ تخرجه من الليل تباشير الأشعة.

أيكون الوعد ذاته قد وصلنا بالإمام السادس الذي هو الآن في ذمة العهد للقيام بهذا الكتاب الذي يحاول الدخول إلى محرابه؟!!



الوعد

الوعد؟ ولكنه لا يحصل إلا بين طرفين: يسمى الأول ـ الواعد ـ والثاني ـ الموعود ـ أما الوعد، فهو قيمة راجحة بذاتها: يرتاح إليها شوق الموعود بقدر ما يجلُّ شأنها.

ولكن الإمام زين العابدين ـ هنا ـ بصفته إماماً موكولاً إليه ضبط شؤون الأمة، ضمن خط مرسوم اقترحه ـ بذاته ـ النبي الرسول ولي الأمة، هو الواعد الأمة بيوم من أشعة تستضيء به وتبدأ تقرأ. . . وبعد أن تتمرس بالقراءة، تتقنها وتبدأ تفهم. . . وبعد أن يتأصل فيها الفهم، تهضمه، وتبدأ تدرك: أن الحياة حق، وخير، وجمال، وهي التي تستوعب هذه المواهب، بعد أن تعيّنها لها، وتزرعها في طاقاتها، وتغرف منها ما يقيتها، وينميها. ويسدِّد خطواتها فوق الدروب، وعلى فسحات الفواصل والمفارق!

والحقيقة أن الإمام زين العابدين، هو الواصلة إليه ـ الآن ـ كل وطآت الهزيمة، بعد فاصل من الوقت، عانت فيه الأمة ـ عبر الإمامة ـ ثلاثة تجارب شديدة القساوة ومريرة المعاناة!!! وها هو العصر الراشدي الأول، يذوب برمته، من دون أن يحقق للأمة الموعودة بشد خصرها بالإمامة، إلا تقهقراً، وانهياراً، وذلاً، وفشلاً. . وبالتالي: تقسماً، وانفراطاً، وحقداً، وعداءً!!! ليكون ـ للإمام الركيزة ـ بعد جهد مرصوص

بثلاثة عقود، نصلة مسمومة مغروزة في خاصرته!.. وللإمام الثاني الحسن، القائم بلملمة الخط، وربطه بالزمام، وبالزمام ـ نقطة من سم، جمدته رماداً في فراشه المحموم!.. وكان للإمام الثالث اقتحام عاشورائي، زرع في بدنه مئة سهم. وألف إشارة إلى عنفوان النبل... وها أنا الآن ـ يهجس الإمام ـ في انتظار القدر ذاته، وأنا ألفلفه بالصلوات والأدعية، ليحترم الأمة، ويغسلها بالفهم، ويخلصها من مسلسل الأدران، ويُزَهّي لها يوم الغد بعلم تحققه ويقوّي لها جناح الفهم وأوتار الحقائق!

إن الإمام زين العابدين هو الذي يقرر الآن: إبعاد الأمة عن المحور السياسي الذي يستميت للوصول إليه الزعماء التقليديون، والإنكفاء إلى المحور العلمي ـ التدريسي ـ التثقيفي الذي هو حاجة الأمة وسبيلها الأوحد، والأصمد، والألزب. وبدونه لا فهم، ولا إدراك، ولا إنتاج، ولا إنماء، ولا تحضير، ولا رأي مصيب يجمع الأمة في مضامين الصواب... وبالتالي: لا سياسة ـ بدونه ـ ولا سياسيون يعرفون حقيقة النهوج، وحقيقة الرصف، وحقيقة العدل، وحقيقة الصدق، وحقيقة وجوب معرفة الله في حقيقة مجتمعية الإنسان.

ولقد أدرك ـ بمرارة لا حدّ لها ـ أن كل ما عرقل الخطّ الإمامي عن تتميم المهمة الجليلة الموكول إليه القيام بها بشكل منظم وغير منقوص، هو في غياب العلم، والفهم، والإدراك.. عن وعي الأمة المقرَّر: ما هو صلاح لها فتشتد إليه، وما هو ضرر فترفضه بإلحاح.

وأدرك ـ فوق ذلك ـ أن العلم لا يصير وعياً، وبصيرةً، ونجاحا، قبل أن يحقق إنتاجاً، ولذة، وفلاحاً.. وبين المرحلتين مسافة زمنية لا بد من قطعها مشياً على الأقدام المصبوب عليها عرق الجهد ونعب الأوصال: بمعنى أن العلم لا يفعل، إلا بقدر ما يحفر حفره ويترسخ... فيا للولي العظيم رسول الإسلام... يحضِّر للمسافة الطويلة حلقات التسلسل والترابط... وها أنا ـ يقول في سره الإمام ـ حلقة رابعة، لم تقدم بعد

للأمة، إلا صبراً على الضيم، وتصبراً على تحمُّل وطآت الهزيمة!!!
ولكني ـ لا بد لي ـ من أن أقدم لها وعداً بغد كبير تبدأ فيه تراسلات الأشعة... ومن يوم قصير إلى يوم طويل، تترسخ الأشعة من انبقار العلم، وتستنير به تلك الأهلة!!!

ولكن السياسة التي قرّر الإمام زين العابدين ابتعاداً عنها وتركها للزعماء التقليديين، هي الإدارية المرتبطة بكرسي الحكم وسلطة الدولة، وهي بالذات ـ هذه السياسة ـ المحتاجة إلى كل ما يسددها بالعلم، والفهم، والدراية، لأنها من الأمة للأمة، في تلازم وتداخل يؤديان إلى تفاعل تتكامل به الأمة، إذا صحت مضامينه، وتتناقص به إذا فسدت مواعينه!

من هنا تم اقتناع الإمام بأن كرسي الحكم في الأمة ترتبط به سياسة احتكارية حاقدة، يتعلق بها زعماء تقليديون مستبدون، لا يرضون بأية سياسة أخرى تمد إلى هذا الكرسي عينها أو الإصبع. وهكذا انتهى القرار إلى تنجية الإمامة من حتميات راهنة ترميها في القهر، وتهددها بسكون الحركة،،، وتهدد الأمة بالذات، بإطالة مكوثها في الأقبية المعتمة التي ينوس كثيراً فيها الضوء!

وهكذا اعتزل الإمام سياسة عجفت بمن يعجنها، واشتاق إلى الأخرى التي هي بنت الصواب، وروح الحقيقة، وشمس تأخذ منها الأمة ضوءاً لها، ودفئاً، وخصباً، وإمراعاً. سيكون للعلم تحديد معنى السياسة في كرسي حكم يسوس الأمة: وهو يوسع لها دروب الحق، والعدل، وروعات البيان ـ وهو يبعد عنها صنوف الجهل، والزور، ومغامز البهتان ـ وهو ينتج لها القمح، والزهر، ومغازل الخيطان، وهو يوسع لها الجوّ، والسهل، ومدارج الشطآن، وهو يعزز فيها قيمة الله، وقيمة الخلق الكريم، وقيمة الحياة في سجية الإنسان.

هذا هو كله الإمام زين العابدين: ردٌّ إلى الإمامة ما صدّته عنها

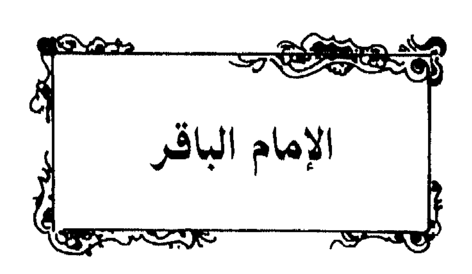
زعامة التقليديين ـ وأولاً وآخراً، ليس للأمة غير سياسة الرشد، ولن يحققها للأمة غير العلم الذي سينير مسعاها، وسيجعلها رافضة كل ما يعرقل نجواها.

هنالك جامعة أهل البيت، إنها ـ من عهد الرسول ـ في صدر الجامع. لقد انعزل إليها الإمام، فامتلأت بالتلاميذ الوافدين إلى عَرف ثمين.

إن من بينهم ابنه محمد الباقر، سيكون أنبه المصغين
وأنبه المتلقفين
وأنبه العازمين على بقر العلم.

لأن أباه العظيم يحفظ في سره وصية جده النبي:
بأن تفجير العلم وقف على واحد من أهل بيته
تميزه النباهة المثلى
والجدارة الجلّى
والإشارات الثمينة

منذ هذه الساعة المقتنعة بحقيقة الإكتشاف ـ
ـ وقد شهد لحقيقة ورود الوصية الشيخ جابر الأنصاري.
وشدد على انطباقها في ملامح الفتى النبيه ـ
أطلق الإمام على ابنه اسم
«محمد الباقر»



الإمام الباقر

وهل في يدي اليمنى غير سبابة تعتز بفخر وهي تشيد إلى الإمام الباقر، بأنه النقطة الأولى في خط التحضير، والتوضيح، والتركيز؟! سيكون بداية الفاصل الثاني في تدرج الإمامة على خطها المرسوم.

لقد مرّ الفاصل الأول ـ كما رأينا بعد غياب النبي الكريم ـ بعهد الراشدين، وهو العهد المصدوم بمحاولات مزاجية ارتجاجية، أبعدت الإمامة عن مهماتها المسنونة والمكنونة، وزجّت أمل الأمة في يأس غبي، زادته الأمية عاراً وشناراً!

إنه الفاصل الأول ـ عهد الصدمات القبلية الضائعة فيها الخطوات، والمحاولات، والتعهدات... عهد كشف الطريق: كيف يُخطّط، وكيف يُمشى، وكيف يُصان... وهكذا انقضى العهد على واقع أعور، لم ينظّف الطريق، وكأنه لم يتوفّق برسمه، بل وسّعه بفوهات الحفر؟؟!

وانتهى الفاصل المخيف إلى حفرة عاشورائية، صبغت الأمة بدم الحسين، والإمامة برعب عقيم، والسياسة كلها بحذر فاشل، ليُعتمد الحقد والتشفي في بناء المجتمع، وليس غير الحقد والتشفي من هادمين يُغرقان المجتمع في انحطاط شنيع؟!!

وابتدأ الفاصل الثاني نابتاً من آلام عاشوراء، مسقياً بالدم المسفوك لفداء الأمة من ذل يُقعدها، ولا يُنيلها أي رجاء... لقد حمل الراية الإمام الرابع المليء بالحزن الشفّاف على أبيه سيد الشهداء، لقد بذل الدمع

الغزير وهو ساجد يصلي، عاقداً من لآلي الدمع درراً زين بها جيد الفقه، وصدر البيان!

ولكنه لم يكتفِ بالدمع متنفَّساً مغسولاً، ولا بالتصبر على الضيم ملاذاً مشلولاً، بل راح إلى اختلاءٍ عميق ونفيس، يفتِّق فيه الأسباب الكامنة وراء كل تصرف عقوق أصابت منه الإمامة ما ضيَّعها عن حقيقة الاتصال بالأمة في محضها كل الدراية وكل الاهتمام!!!

وحدها الأمة ـ قال للإمام عمق التبصّر، وعمق الاختلاء ـ هي الملاذ، وهي السناد... وهي التي تعيِّن الحق الذي تحتاجه لتعيش به، وهي التي تدافع عنه حتى لا يهدر... أما الإمامة: فهي اللمسة الدعجاء التي تطوف حول محجر العين ـ بلطف، وحب، ودراية ـ لتجلو العدسة الثمينة من قذاها!!!

واقتنع الإمام، بأن الأمة التي استنزلت لها الرسالة، هي الهدف المستحق ـ اللطف، والحب، والدراية ـ وهي الملاذ والسناد، بقوة الحق الذي تعيِّنه ـ هي ـ لها، إذ تراه بعينها المتحررة من قذاها!!! وقذاها هو الجهل، والعيُّ، وفقر الروح، وتمادٍ في الثرثرات الأمية التي يسدُّ آذانها ـ بها ـ زعماء سياسيون، تقليديون، لا يفصِّلون للأمة إلا قمصاناً قبلية، لا جُبَّةً رسالية!!!

وانتهى قرار الإمام، وبين يديه رجل آخر معتصب بشعر أجعد، وفي محجريه عينان مشغوفتان بنور أحمر، دفعهما ـ به ـ شوق جده الرسول الموحي إليه منذ زمن بصير، بأن الأمة التي هي: إنسان، وملاذ، وسناد ـ لن يجلو عينها الدعجاء ـ من قذاها المستبد ـ إلا العلم الكبير الوسيع المستدير، وهي ـ إذ تلتف به التفافاً مستنيراً ـ ترى الحق الذي تصبو إليه، فتأتزر به وتمشي إلى ساحاتها الخصيبة، والتي هي: رغيف نظيف، وقميص عفيف، وصدر شريف، وعقل حصيف... وحلم يمحو الشناعات من ربى الإنسان...

إن الرجل العظيم المتكي على زند أبيه، هو ابن زين العابدين، وهو ابن الأمنية الكبيرة التي مسحته باسم الباقر، وجعلته نجيَّ الرسول... وهو تلميذ المدرسة التي راح ينشر العلم فيها أبوه الإمام النازف نفسه من عينيه المصبوغتين بالدمع القراح... إنه الآن في بداية عقده الثالث، وهو النهلان من التمرس على أبيه لاستئناف مهمات الإمامة بعد أن تنشدّ إليه، وهو الذي قبَّل عيني أبيه طالباً إليه ـ برجاء ـ أن يحوِّل مجرى الدمع، من حزن يابس، إلى نجوى ناطقة بالصلاة من أجل ترهيف حس الأمة في إقبالها على مناهل العلم الوسيع حتى تتوسع مداركها، وترى بعينها: ما هو حق فتبتغيه، وما هو انتقاص منه، فتجافيه!!!

إنه الآن جوالة على كثير من أقطار الجوار: من فلسطين، إلى الشام، إلى مصر، إلى جند بسابور... إن البحث عن كل علم تلملمت به أبجديات أجداده الأقربين والأبعدين. كان في وسيع اجتهاده: كالطب، والهندسة، والحساب، وعلم الجغرافيا، والفيزياء والكيمياء... لقد كان له تحويش ثمين، وانصباب مشتاق على الدرس، والاستقراء، ونوعيّة الاستيعاب والتلقين... وها هي المدرسة المركزة في جامع جده الرسول في يثرب، ما كاد الإمام أبوه يستنفرها ويستحثها للنبض، حتى كان ـ هو ـ أنبه من نبضت به، وأول من تخرَّج منها، وأجرأ من همَّ على توسيعها، وتحريك قابلياتها لأن تكون رسالية جامعية.

ذلك هو التحضير، والتمهيد، والتوجيه إلى محو الجهل والأمية من أرضية الأمة، حتى يكون لها من العلم ما يفتح لها بوابات اليقين، وما يساعدها على بناء الذات، وما يكسبها احترام الإمامة واعتبارها أضمومة نبوية مشتقة من ضلع الأمة لتتميم مشقات السهر على مآتيها البالغةَ بها إلى: حق، ورشد، وجمال.

وانتقل الإمام زين العابدين إلى حضن أبيه الشهيد، تاركاً الجامعة الفتية في عهدة الإمام الباقر الذي استمر في عمليات التفتيش، والتوضيح،

والاستجلاء، وبين يديه ابنه جعفر، يلبيه في عمليات تعميق البحث، والتنقيب، والتحضير، والتركيز.

ولكن أغلبية المواد العلمية التي تناولها جهد الإمام الباقر، لم تكن أكثر من عناوين محتاجة إلى كثير من المعالجات الذهنية الأصولية الغافية عنها وضعية التحديد، وخاصية التجريد، لأنها ذكر تراثي غائبة عنه مواصفاته، ودراساته، وتحاديده... لقد تفاعلت به حضارات أجدادنا القدماء: في فينيقيا، وفي قبرص، وجبيل، وأوغاريت، وبابل، ونينوى، وشنعار، وأريحا، ومكة، وحضرموت.. إنها حضاراتهم، عبَّرت عنها الأبجديات، وألسنة اللغات، وساريات السفن، وشفافيات الزجاج، ونحت الحجارة، ورصف المداميك، والقلاع، والقصور، والأعمدة الشاهقة تحت القباب... وهكذا كان الحساب في الترقيم، والهندسة في التنظيم، والجغرافيا في تحديد التخوم... وعلوم الفيزياء والكيمياء والآثومات في ركن الجوهر الفرد... وكانت الزراعات، والصناعات والطبابة، والأنوال، وخيطان المغازل.

لقد فتش عنها كلها الإمام الباقر، فوجدها في ظلال العناوين، تفسرها الإشارات. من دون أن تتبسَّط بها الشروحات... فجاء بها - في عناوين - وطرحها على بسط الدرس. ليتلقفها الذهن، ويعمل الجهد على تفجيرها من مخابئها المطوية في السجلات التي نهبها العالم القديم، وكان من أبرعهم في النهب والاقتباس: اليونان، ومن ثم الرومان.

من هنا يصعب علينا أن نقدر كم كانت فداحة المشقات على الإمام الباقر عندما يتناول أية مادة من المواد العلمية، وقد وصلته ملفوفة بعناوينها، ولا بتحاديد قوانينها، وتفاصيل مضامينها، فكيف يكون له أن ينقلها إلى الطلاب فهماً وتثقيفاً؟!

ولقد كان الإمام يدرك أن العلوم كلها لم ينلها أي مجتمع من مجتمعات الأرض إلا تدريجاً وبالممارسات، فهي: أولاً - بنت العقل - ثم

تكون بنت الحاجة المتلاعب بها التطور. . . كالحساب ـ مثلاً ـ كان، أولاً، رقماً بسيطاً، ولكن المجتمع الذي نما بتكيف الإنتاج المتزايد والمنوّع، حوّل الرقم البسيط إلى علم مركب، وراح يتدرج إلى سجلٍّ حسابيٍّ يضبط الرقم في تدوين الأرباح والخسائر، ليكون بدوره محصياً ومنتجاً ومراقباً. وليكون زراعة يحصي أنواع التمر، وليكون صناعة يرتب أنواع الصناعات بصنوف المعادلات، وليكون له تحويل إلى خطوط ومساطر الهندسات، وليكون له ارتباطات بمزج الذرات بالذرات المتألفة منها ذاتية الأجسام في علم الفيزياء، ومعادلات الجبر، وتحويلات الكيمياء من عنصر إلى عنصر، ومن لون إلى لون، ومن طعم إلى طعم.

هكذا رأى الإمام الذي تغدق عليه الإمامة نباهة ذاتية وفكرية وروحية وعلمية، ليكون له مجال تخصصي في توجيه الأمة توجيهاً متجاوباً مع الرسالة التي خصَّها للأمة رسولها العظيم، وهكذا أدرك أن العلوم حاجة تمارست بها الأمة في وقت من أوقاتها المرتاحة إلى حقيقة الإنتاج المتحول من رقم بسيط إلى تحرك حسابي ـ صناعي ـ هندسي ـ ثقافي ـ حضاري. . . ثم لوى بها حدثان الطوارىء، فذوى الإنتاج إلى تناقصات أوقعت الأمة في متاهات الهذيان، ولم يبق لها ـ بعد مجال طويل ـ من العلوم التي اكتسبتها ودبَّجتها، إلا عناوين كبيرة، لا يشرحها للذهن إلا الاستقراء الذاتي، والاستنتاج المسحوب من حقيقة الجوهر.

ولكن الإمام المريد ريادة الحق، عكف على استقراء حروف العناوين، وكذلك على الاستنتاج العقلي والذهني الصادر من حقيقة الجوهر المخزون في خلية الإنسان. . وكان له من تشوق الاستقراء، ومن عقلانية الاستنتاج، لهفة جديدة من التحديد، نقلها إلى طلاب الجامعة، محركاً فيهم شوقاً دائماً إلى الاستقراء والاستنتاج اللذين تتوسع بهما البحوث والعلوم، مع توسُّع مدارك المجتمع الذي سينقل كل علم إلى دائرة أخرى، تعيِّن الحاجة عمقها وحجمها.

بحكم الطبع، لم تكن التحاديد التي قدمها جهد الإمام، هي العلمية التقنية المغلّفة بكل رهوناتها، ولكنها كانت ـ مثل كل المقدمات ـ تشير إلى الحيثيات المشعة من كل مادة ـ على انفراد ـ وسيكون للتعمق مجالات أخرى يجهزها الشوق النابت منها للتمكن من الكشف المستزيد عن مهمانها!

وهكذا تمكن الإمام من الأخذ على عاتقه شرح كل مادة أفسح لها ركناً في جامعته، أكانت تاريخاً أم جغرافيا، أم حساباً، أو فيزياء أو كيمياء... واعداً تلاميذه باستطلاعات أخرى، ستوفرها ـ حتماً ـ حاجة المجتمع إليها، بقدر ما تترسخ فيه الإفادة منها.

ولم يتوان الإمام بالتلميح عن الإفادة من كنوز العلم عندما يترسخ في المجتمع فهماً ووسع معارف، ولا شك بأنه سيكون: زراعة، وصناعة، وأنوال خيطان... وسيكون شبعاً، وراحة، وثقافة، وشمول حضارة... أما التوسع فيه والتمكن من إحرازه، ومن الخوض في عمق بحاره... فإن ذلك رهنٌ بالأذكياء الأقوياء الأولياء، يغوصون فيه، ويستخرجون منه درراً تتوهج بها مجتمعاتهم في أيامها المستعدة للتألق والبروز!!!

في تلك الجلسة الدراسية المختصة بعلم الفيزياء المطلة على علم الكيمياء، كان طلاب الجامعة متحلِّقين ركعاً حول الإمام، يصغون إليه مشغوفين بحرارة كانت تتدفَّق من بين شفتيه، وبلألاء بعيد السنا، كان يفيض من عينيه المتنقلتين: ـ من سقف الجامع الشبعان من صدى الكلمات التي كان يتفوه بها الرسول قبل أن يترك الأرض ويغوص في رحاب الملكوت ـ إلى ابنه جعفر الساجد بين يديه في إصغاء كأنه فجوة من حنين...

وانتهى فصل الدرس، وانسحب الطلاب، واحداً بعد الآخر، إلى ساحة المسجد التي وسعها الوالي التقي عمر بن عبد العزيز..

وحده بقي جعفر غارقاً في الإصغاء، كأن الصدى هو المحاضر الآخر الفارض الإصغاء الكبير.

أما الإمام المتفهم صدى الرجاء، فإنه تلهَّف إلى ابنه الساجد، وابتدره إليه، كأنه يوقظه من سُبات... ورأساً أفاق الفتى، وهو يتناول يد أبيه، فيقبلها وهو يقول:

ـ أنا في يقظة يا أبي، ولكني أسأل: من هو الذكي، القوي، الولي ـ غيرك ـ يفجر العلم، ويغوص إلى عمق البحار، يستخرج منها لؤلؤاً يزيِّن به صدر الأمة الموعودة بالتألق والبروز؟!!

وغرق الإمام في فجوات السؤال، وبعد لحظات طويلة قال:

ـ أنا بأشواق جدك الرسول أقول:

ليس العلم بالقول يفجَّر،

بل بأن يُمارس، فيفجر!!!

إني أرى في عينيك:

بهاء الذكاء،

وصفاء الأولياء،

وعزم الأقوياء...

وهذا كله رجاء العلم حتى يُقتحم ويُتَفجر!

ومن يفجر العلم إلا حاجة الأمة إليه!

فأيقظ أنت ـ أيضاً ـ حاجة الأمة إلى الاقتباس الناقل الجمود إلى الحركة، والكسل إلى العمل، والسم إلى الدرياق!!!

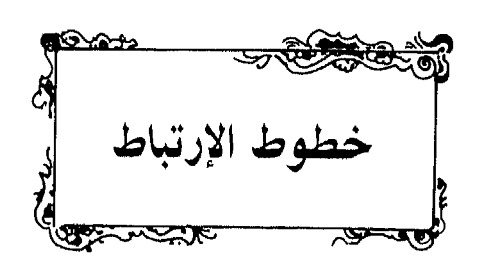
أليست هكذا تفعل الكيمياء، وهي تتفاعل بجزئيات الفيزياء، فتحولها المعادلات من إيجاب إلى سلب، ومن سلب إلى إيجاب؟!!

كن أنت ضمير المعادلات، ليتيسر لغيرك ـ من حولك ومن بعدك ـ ولوج إلى جوهر المعادلات!

وكل شيء ـ يا ابني ـ في الحياة، معادلات في عبٍّ معادلات، وجزئيات تتلاحم بجزئيات، لتصير أرضاً تسبح في فضاء، وخُلقاً تترجاه السماء!

وها إني أميزك ـ في رجائي ـ برجاحة جوهرك، ورجاحة صدقك ـ فأنت ـ غداً ـ من بعدي:

ـ الإمام جعفر الصادق ـ



خطوط الارتباط

لقد أوصلنا التسلسل الإستدراجي السريع إلى الإمام جعفر الصادق، ولكني أُمهل الدخول إليه دخولاً سريعاً، إلى ما بعد أن أستجلي كلاماً تفوّه به الإمام الباقر في أذن فتاه الذي كان رابضاً أمامه ـ كما رأينا ـ في بحبوحة الإصغاء. لقد تمنى الأب الكبير على ابنه ثلاث أمنيات: أولاها ـ التنسُّك للعلم الذي هو حاجة قصوى للأمة، وثانيتها ـ إيقاظه الأمة حتى تُقبِل على العلم الصحيح الفاعل. وثالثتها ـ تمييزه ابنه جعفر بطيب الجوهر، ووضوح الصدق، حتى يكون ـ غداً أو بعد غد ـ الإمام جعفر الصادق.

يبدو من القول إنه ارتباط بخطوط مرسومة، قررت الإمامة انتهاجها بوضوح يبعدها عن الصراعات القبلية التقليدية العتيقة، وما جنت منها الإمامة ـ في سبيل الأمة ـ إلا موتاً وتهديداً بإبادة!!! ولما كان هذا الويل كله يحصل، ـ وتصيب منه الإمامة مباشرة، والأمة مداورة ـ لو أن الأمة تتمتع بسوية علمية ثقافية، تنتصر بها للإمامة التي زرعتها الرسالة تخصّه بها ـ كأمة ـ للتعهد وشمول الدراية! وهكذا كان القرار: في ترك السياسة العتيقة لكل المفتتنين بها، وفي الانصراف ـ بالمقابل ـ إلى النهوج العلمية القمينة بنشر المعارف، وتمتين المعادلات الفكرية الحياتية المرسَّخة على حقيقة العلم، وحقيقة الوعي، وحقيقة الإدراك.

إنه التزار المرسوم ـ بعد انقضاء العهد الراشدي المختوم بدم الإمام الحسين ـ ومع ابتداء الفاصل الثاني الممهور بالإمام زين العابدين، بحيث

هبَّ سريعاً إلى المسجد يشرع بابه أمام الطلاب الوافدين من جميع أقطار الأمة إلى المنهل المختص بالتلقين الموسع. وهذا ما تأكدنا منه في تسليم الإمام زين العابدين أمور الجامعة الفكرية لابنه الإمام الباقر، بعد أن مرّسه بإدارة شؤونها ثلاثين سنة، قبل أن ينطوي إلى حضن أبيه الحسين!

ولقد تأكدنا أيضاً من الجهود الجبارة التي بذلها الإمام الباقر من أجل إغناء الجامعة بكل المواد العلمية المعروفة في ذلك العهد، والتي هي توارث عن جهود الأمة في عهودها الماضية، وقد حققت بها - في ذلك الحين - حضارات عريقة أخذ بها العالم القديم كله، ومن الجملة اليونان والرومان، وحتى العالم الحديث الذي جعلها أساساً متيناً لكل تقدم تكنولوجي، طوّر به علومه، وحضاراته، وكل شؤونه الحياتية - الإقتصادية - الإجتماعية التي أوصلته إلى متون الفضاء، والإحتكاك بأجرام المجرات!

لم يخب العلم - أبداً - في رفع مستويات الأمم ودفعها إلى حقائق الإنتاج، أكان الإنتاج: فكراً، أم سياسة، أم صناعة وعمق اكتشاف. . وهذا اقتناع نلملم به الإمام الباقر، تنفيذاً لقرار اتخذته الإمامة - بشخص أبيه الإمام زين العابدين، لينقله قضيةً إمامية مقررة في مرسوم، إلى ابنه جعفر الذي راح - بدوره - يمارسها تسع سنوات مع جده زين العابدين، قبل أن يغيب عن خط الإمامة، ويمارسها - أيضاً - على مدى عشرين سنة، بين يدي أبيه الإمام الباقر الذي لم يترك الإمامة ويرحل، إلا بعد أن تثبت له: أن ابنه جعفر هو المميز - في رجاء الأمة - برجاحة طيب الجوهر، وبرجاحة أخرى، هي الصدق في تتميم حيثيات المرسوم، وفي تطبيقها على الأمة تطبيقاً ناجزاً، وصادقاً، وملماً. . . ولقد سمعناه يقول بالحرف:

- إني أميزك في رجائي [ورجاؤه هو رجاء الإمامة] برجاحة جوهرك [الطيب] وبرجاحة صدقك [الفاعل] - ولذا: فأنت - غداً - من بعدي: الإمام جعفر الصادق.

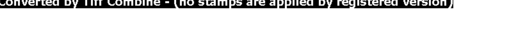
إني أراه ـ هذا القول المميز ـ مجسداً في بال الإمام الباقر. . . لا ليكون تشجيعاً لابنه الإمام، حتى ينهج النهج المقرر في الخط الإمامي الموجه والمرسوم! أجل، لم يكن القول تشجيعاً: بل كان قراءة لما هي مبنية عليه نفسية ابنه الإمام: فهو بين يديه في الجامعة، منذ كان عمره ثلاث سنين، ولم يبلغ العشرين من عمره، حتى أحسَّ به متملكاً عبقرية يندر أن تتنوع بمفرداتها جيوب العقل في بنية إنسان!!! فهو: عقل في تمام الصفاء. . . وذكاء: في ماهيات الاستيعاب. . . وذاكرة: في مدى التسجيل، والتحصيل، والابتكار. . . وعلم: يوسعه من طبيعة فقراته، ويأخذه من ضغوط بصماته. . . وحلم يجسده من وقع خطواته في اليقظة، لتستفيد منه عتمة الظن!!!

فعلاً، لقد قرأ الإمام الباقر ابنه جعفر، قراءة مصمدة الحروف في باله، على طول المدى الذي مشاه بين يديه في الجامعة، وكانت القراءة صحيحة في مختصرها: بأنه رجاء الإمامة، لأنه عزيز الجوهر،،، ولأنه سيكون الصادق الصادق في النهج والاستمرار في تتميم شروحات الرسالة، وتكميل السير بأهداف الإمامة.

من هنا إنْ النعت تَلبَّس جعفر، وها هو مغمور به: من ساعة غياب أبيه إلى هذه اللحظة التي تبقى وتستمر كبيرة وصادقة بالملازمة!

ومن هنا ـ بالتأكيد ـ تبقى العلوم. . على وسع مداها. . بانتظار جهد باقري ينقلها بالتفجير المستمر إلى الصادق الذي تعهدها بالاستقراء، والاستنتاج. وربط الأسباب بموجباتها، وإلى كل مريد يرتهن بصدق مداها. . .

وتبقى ـ ما عدا ذلك ـ خطوط الارتباط حاضرة في ذهن الأمة، تذكرها بأن قوة الأمة مشدودة بمناعتها العلمية المتنامية ـ من جيل إلى جيل ـ حتى إذا ما توانت عن اطِّلابها، فلا تلومنّ لا الباقر ولا امتداده الصادق. . . لأنها هي التي تكون قد صفعت ذاتها بجهل مطبق، لا تزال تتمرغ به قوافلها المشدودة على الخطوط الأوابد!






الدخول المستريح

جعفر

السنوات التسع

أزاميل

السنوات العشرون

الشروحات الكلامية

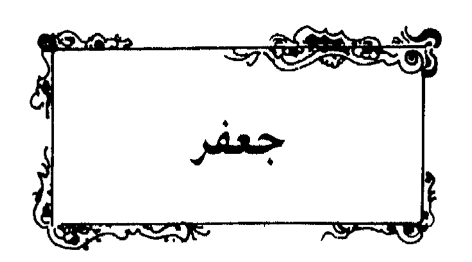
اللدنية

الجامعة

إمامة الباقر





جعفر

والدخول إليك يا جعفر، لهو الدخول المسنريح، لفد قرأناك صميراً مستحباً في خلد جدك النبي، قبل أن تولد، تماماً كما قرآنا اسم أبيك الباقر، مدفوقاً بشوق نادر، قبل أن يتجسد!

يا للباقر، يتمناه الرسول مزروعاً في أصلاب الإمامة، يفجر العلم غذاء للأمة فينقذها من جوعها المدقع! ويا للصادق، يرجوه الرسول مخزوناً في نهى الإمامة، حتى يصدق في نشر العلم، يدبِّج به يقين الأمة!

هكذا كان الباقر اسماً لأبيك، عيَّنه شوق النبي قبل أن يتجسد أبوك في لحم ودم، وهكذا كان الصادق نعتاً عظيماً للطيبين، تمتم به جدك النبي، قبل أن ترسمك في رحمها ـ أمك ـ بنت القاسم.

واسمك «جعفر»؟ من طرَّزه بالصادق، غير جدك الإمام زين العابدين، وقد حملتك إليه ـ القابلة ـ ملفوفاً بقماطاتك؟ لقد كان أبوك الباقر ـ في ساعة هبوطك إلى صحن الأرض ـ مشغولاً بالتفتيش عن شروحات العناوين العلمية التي حَوَّشها مشرورة ـ هنا وهناك ـ في الشام، وأريحا، وجبيل، وحضرموت، ومصر الأقباط، وجنديسابور جدته شاهزنان الأنوشروانية . . . ولربما كان ـ ساعتئلك ـ مفتشاً عن أصول علم الجغرافيا في حواضر الصين أو في معابد الهند. . . أو عن أصول الكيمياء الطامحة إلى تحويل النحاس إلى ذهب، في بعض عواصم اليونان.

أجل ـ لم يكن أبوك الباقر حاضراً ساعة وفودك الميمون ـ وكان جدك الساجد، بانتظار دخول القابلة، وعلى زندها طفل ذكر، وفي عينيها

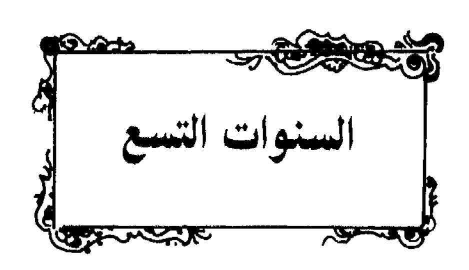
بهجة لا تفقه لها تفسيراً. . .

وتناولك جدك يا المقمط، وكان أول من تلمس فتحة جفنيك، وأول من استشفَّ غزلة عينيك، وأول من لمح امتداد جبينك إلى أغوار فوديك، وأول من قرأ تقعر النور في عدستيك، وأول من هبط يلثم الأرض وهو يقول:

ـ يا للملامح المقروءة! ويا للمواعيد المرسومة في آلياف الشرانق!
ويا لانسياب النهر الرقراق تتبرَّد به أعطاش الصحاري!!

بعد سجدة طالت تسعة أيام ـ قام الإمام جدك. . يا المقمط ـ وقرع باب المخدع الذي تنام فيه أمك. . . دخل وهنأها بالسلامة وهو يقول:

ـ ابنك يا «أم فروة» زين البرية.
أبوه يفجر العلوم!
وسيكون ـ هو ـ سقياها الندية!
لقد تبصر به جده الرسول ونعته بالصادق!
ولا يليق بالصادق إلا جعفر!
أتدرين يا «أم فروة» ما معنى الجعفر؟
إنه النهر السلسبيل،
يأخذ الماء من عين السحاب،
ويدفقه رياً على أعطاش الرمول!
فقرِّي ـ عيناً ـ يا أم جعفر



السنوات التسع

ومررت يا جعفر في بال جدك الإمام زين العابدين ـ بسنواتك الأولى التسع ـ كأنك الحلم الصغير، ولكنه المفتوت من دهر لا تقدر أن تضبطه متون السجلات. وهكذا اختصر جدك ـ مسبقاً ـ كل سنة من عمرك ـ معه ـ بيوم ملون بشعاع من مآتيك النائمة الآن خلف عينيك المغلَّفتين بالحلم النضير. لقد امتص كل ما في عينيك من وعد بهيج، وغزلك به غزلاً صادقاً، تقرُّ به عين أمك التي راحت تشعر بأنك ـ فعلاً ـ طفلها البهيج.

واكتشف جدك الإمام ـ على مدى تسعة أيام منسولة من تسعة أعوام، وبعدها نام قرير العين، وهادىء البال والفال ـ بأنك الصادق الصادق، وبأن الكلمة الجائلة في الفكر، لأنت المتمكن ـ غداً ـ من ضبط حروفها بالالتحام!

ـ ١ ـ

يبدو يا جعفر، أنك ولدت وعداً، وأنك ستستمر وعداً بتحقيق الآمال النائمة في معاني اسمك الملفوف بالصادق... وهكذا يبدو أن في اسمك نهراً يدفق فيه عذب زلال، لا يفسره في ردحه المتماوج والمستطاب، إلا دفق العلم في روعة السلسبيل الذي هو: فقه، وفلسفة، وجبر، وحساب... وفيزياء، وكيمياء، وإنتاج، وخلق، وإبداع!!

وهكذا يا جعفر، تعيش في جوك أبعاد أخر، تتبصر بها خطوط الإمامة في رعاية الأمة، ورفع قيمتها بإنسان يدرج به العلم الوسيع إلى

الفهم المنيع المنتج إنساناً شبعاناً ومدركاً ما قيمة الحق، وما معنى الصدق، وما روعة الإنتاج في ظل الفهم، وما حقيقة الوعي في بناء الذات الكريمة المتمكنة ـ وحدها ـ من بناء الأمة السعيدة المقتنعة بحقيقة الرضوان.

تلك كلها عناصر الرجاء الحزين ـ تعلَّلَ بها زين العابدين ـ لا ليتناسى الأسى الذي غمره به دم أبيه الحسين، بل لينقذ الأمة من وباء مقيم، يشفيها منه: العلم الصادق، بتحويل مكائد الجهل، من أباطيل إلى تهاليل، وقبائل الأمة من متاهات الإنفراط، إلى بهجات الإرتباط، والعين، من الدمع الحزين، إلى الفرح المتين... والعلم «وحده» هو منير البصيرة في جلوات اليقين.

ـ ٢ ـ

منذ أن اشتد غسوق الليل على شرايين الحسين وفجَّرها دماً على الأوتاد، والإمام زين العابدين يصب الدمع على قروح العين ويلملمها إلى تبصّر... ولقد رأى أن الإمامة التي رصدها النبي الحبيب لترتيب وجهات السير بمقدرات الأمة إلى حرز حصين، هي المشدود عليها وبل السهام، من دون أن تقيها منها أمة لم تصل إليها بعد نعمة التمييز بين عهدتين: واحدة بدأت تلملمها إلى صدر رحيب من حب، وحق، ونبل فتعزَّز بها نخوة الإنسان، وأخرى بقيت تجمدها في واقع الوهم، وهي تكبِّلها بعبودية هي أوهى ما تستمر بها نفسية الإنسان!

وإن يكن قد طال الدمع، وفدح الحزن، فالصبر قد تجلَّى في منابت العزم على تنفيذ القرارات المرسومة والواردة في بيانات الرسول الولي، بأن الأمة المسكينة هي المحتاجة إلى إمامة رصينة تكفكفها بالسياسة والحراسة، وهي المحتاجة كذلك، وبنوع أمَسّ، إلى علم ينيرها، ويوضح لها المفارق فوق الخطوط: فإذا كان العصيان ـ بعد انتقال الرسول إلى

الجنان ـ قد تجنَّى بمقدار لم يكن في الحسبان، مما عرقل تنفيذ القرارات المرسومة وأنامها في أدراجها، فإن على الإمامة التي تلقت وطأة الخيبات، وعانت منها القهر، والموت، وكل أنواع النكبات، أن تعيد النظر في واقع لا يهدد الإمامة بالإبادة، أكثر مما يهدد الأمة كلها بالإمحاق! والأمة الحية الفذة هي حلم النبي، وإنسانها الكريم الوسيم هو رجاء النبي، والإمامة النابتة من الرجاءين المتلازمين بأمجدية الإسلام، هي خطوات الدهر الذكي الصائغ ـ بسعة العلم ـ حضارات نبيلة تتزين بها صفحة الأرض برقي الإنسان، وخلود الله في أريحية الإنسان.

لم تكن إعادة النظر عند الإمام زين العابدين أقل من شؤبوب كان ينبجس من طوية نفسه وهو ساجد يصلي صلوات الاستلهام، حتى تنجو الأمة من أسباب تعاستها، وتسلم الإمامة من أهوال نكبتها، وهكذا قرر ابتعاداً عن كرسي حكم بتركه للتقليديين المستميتين بالجلوس فيه، والتزاماً بمعاهد علم تختص بشرحه، وتوسيعه، ونشره... لقد دله بعد النظر إلى أن في العلم ـ وحده ـ نعمة التمييز بين عهدتين: تتعلق الأمة بواحدة منهما، هي المصيبة، وترفض الأخرى، وهي المريبة، وذلك بقوة الوعي ولا بسدارة العي، وبألمعية الرضوان ولا ـ مطلقاً ـ بفراضة العدوان والبهتان!!!

وهكذا كان جدك زين العابدين ـ يا جعفر ـ نظرة جديدة في حلبة الاستئناف، اتخذ قرار نشر العلم في الأمة، وراح ينفذه تلبية لرجاء النبي الكريم الذي كان يترقب دائماً بروز إمام في خط الإمامة، يبقر العلم، ويوزعه على الأمة: فهماً، وإدراكاً، وصدقاً، وإنتاجاً... وها هو أبوك الإمام الباقر، يلبي ترقب جده النبي في تشديد عزم أبيه زين العابدين، ويملأ رفوف الجامعة في يثرب بمواد الفلسفة، والفيزياء، والحساب، والهندسة، والكيمياء... تاركاً لك، يا جعفر، عملية استتمام الجهد، وتوسيعه، وتركيزه... وها هو في نهاية هذه السنوات التسع التي امتلأت بك، قبل أن ينضم إلى حسينه مغسولاً بغزارة دمعه، يتركك مزروعاً في

مهجة أبيك الباقر، وهو مطمئن البال بأنك ستكون روعة في التكميل، والتأسيس، والتركيز... أما الأمة، فإنه خصَّها بدعاء بتول، حتى تستمر بالإصغاء المفتوح على الأمل الآتي مع الغد، إذا استمر الصدق مرهِّفاً صفحات الصنوج!

ـ ٣ ـ

شهياً كان حفر جدك الزين يا جعفر: في عينيك، وأذنيك، وأحاسيسك، قبل أن يأتمَّ الرحيل. حتى إذا ما غاب استنيب عنه حضور يُشَفِّفه في ذاتك إلى هالات مقصوفة من بحيرات اللهب...

فعلاً، لقد تشفَّف جدك يا جعفر في هنيهات نفسك كما يتشفَّف البلور في صفحات المرايا الذائبة تحت مدافق النور. كنت صغيراً غنوجاً في تلفُّت السنتين من عمرك، عندما كنت تفتش عنه في معارج الدار الفسيحة التي كان ينزل فيها جميع أهل البيت الطيبين، ولشد ما كنت ترتمي بين ذراعيه إذ تلمحه في أي ركن من الأركان... أما هو فكان سريعاً ما يتلقفك ويسجد بك، كأنك صلاة جديدة هبطت عليه، ولن يكون له إلا أن يرتِّلها بلحن يستنزله من غزلة عينيك.. وما كان ـ أبداً ـ يقرأك إلا في دوحة عينيك!

أظنك لا تنسى أنك فتشت ذات يوم عن جدك، فلم تجده حتى ولا في أية زاوية من زوايا الدار، فهببت إلى بستان النخيل العامر بخمسمئة من النخيلات المشوقات لجهة الشرق من بيتكم الهادىء المستكين في يثرب... ولكنك فوجئت بجدك مهرولاً إليك، فاحتضنك وأطل على بوابة المسكن ينادي: أين أنت يا أم جعفر؟ وأطلت أمك، وبين يديها عباءة صغيرة لك ـ مهفهفة ومنشورة ـ فتناولها جدك وأنزلك إلى الأرض ليلبسكاها، وهو يقول:

ـ من الآن وصاعداً لا تستطيلي غياب فتاك جعفر، سيطوينا اثنينا

بستان النخيل... وعندما يملأنا الظل الدافق، أعيد إليك فتاك الصادق... فاستنيري يا أم جعفر!!!

وفي بستان النخيل تم تنزيل ظليل، عبأ السنوات التسع من عمرك بنمنمات هي أثمن ما يتركه الحفر في حاشية التطريز.

ـ ٤ ـ

لقد أولع الجد بحفيده النازل من عالم الندرة، على متن عبقرية موشّاة بصفاء الذهن، وذكاء في اللب لكأنه البلور الأروع من العسجد! لقد انفرد به لسنتين اثنتين انشدت فيهما عملية الافتتان... وفي نهاية الرابعة من عمره قاده إلى الردهة الكبيرة حيث يجتمع الطلاب في المسجد للاستماع إلى الشروح العلمية التي بدأ يقوم بها الإمام الباقر... لقد كان الجد مقتنعاً بأن الفتى الصغير بلحظات العمر، وسيع في مسافة اللمح، ولن يستعصي عليه فهم ما يُشرح، ولقد كان الشرح ـ في واقع الحال ـ بدائياً لمواد جديدة لم تألفها إلا لأول مرة جامعة يثرب.

ما كانت تنتهي ـ ولا مرة ـ مرحلة الدرس، حتى ينسحب الجد بحفيده إلى القاعة الثانية الممتدة تحت أظلال النخيل، حيث كان يتأكد للإمام أن فتاه متمكن من إعادة شرح ما تلقَّن منذ لحظات... ثم تبدأ المطالعات الجديدة المفتوحة الآن على الأفق الوسيع.

وكان الأفق الوسيع تندُّراً وتلميحاً قبل أن يستحيل إلى تأسيس وتركيز... ابتدأ بجده النبي، ولد في أرض جدبة ـ بينما كانت، في ردح من دهرها، خصبة ـ وتمناها إلى غد مخصاب، وراح يستنزل عليها أفراح السحاب... وهكذا امتد الشرح متنقلاً من هالات اجتماعية إلى دوحات تاريخية غزرت فيها المشاهدات الراقصة بأمجاد الجدود: من إبراهيم إلى إسماعيل، ومن عاد إلى ثمود، ومن امتداد القبائل القديمة إلى كل جوار ترسخت فيه، وشاركت بإنشاء حضارات زها بها: بنو كنعان، وبنو آشور،

وبنو سومر، وقد اعتزت بهم ـ جميعاً ـ الأبجديات، وصناعات السفن ذوات المجاذيف، وأنوال الحياكات، وتشفيف الزجاج، وإشادة القصور، ورصف المداميك تحت أعمدة القباب والقلاع، ليكون للغرب اتصال بالشرق المتتلمذ على يده اليونان فالرومان!

كل ذلك قد استدعى الوصول إليه، والإحاطة به ـ بشكل تلميحي ـ الحديث عن النبي الكريم الذي غرق خمسة وعشرين عاماً اختلاء في غار، حتى يحضِّر للأمة ما يذكرها بأيامها الممتازة.. ويحرِّضها على استعادة جهد يعيدها إلى استئناف المسار!

هكذا راحت بحوث الجد تنزل في ذهن من يتلقفها، كما تنزل الديمة في عطش الرمل المتمني الاستزادات، وكانت ـ من يوم إلى يوم ـ استزادات رضية، تناولت القرآن الكريم: سورةً سورة، وآية آية، ولغزاً لغزاً نائماً في سلسلة الألغاز المطوية من يوم مضى إلى كل دهر آت، كأن الألغاز كلها هي مخازن القوت الذي تمحي به المجاعات!!!

وامتد القرآن الرحيب بمراميه، ليغلف به الحد الثاني، ألا وهو علي أمير المؤمنين. وهكذا انتقل التناوب من محطة إلى محطة، كما تنتقل ـ مع الريح ـ غمامة إثر غمامة، يتطرى بها جوٌّ مولع بدفقات الأشعة!!!

ـ ٥ ـ

وما ابتدىء الحديث بالإمام علي، كأنه فاصل جديد قائم بذاته، بل استؤنف الحديث إليه كأنه وصلة كلمة بكلمة، أو اتصال بيان ببيان في مجال التعبير عن دائرة محكمة الامتلاء بوحدة الجوهر.

على أساس من قول النبي: علي مني وأنا منه... من أحبني فقد أحبه، ومن أبغضه فقد أبغضني... بني الحديث عن الإمام علي، بشكل من الالتحام الداغم الاثنين في واحد.

لقد أولعت أنت يا جعفر بافتتان جدك الإمام زين العابدين بجدك الإمام علي أمير المؤمنين، ورحت ـ بذكائك الفطين تستفهمه عن إمكانية حصول طباق بين شخصيتين متكاملتين بوحدة الجوهر، وفرادة الانسجام، من دون أي فارق يميز واحداً عن صنوه الآخر؟!

ولكن جدك الزين يا جعفر ـ وقد اجتذبتك إليه دقة في استفهامك، جليلة اللمعان ـ راح إلى تعمق في الإشارات إلى الأهداف الكبيرة المطلقة التي تختفي من جوها الفسيح ظلال صغيرة عابرة، لا يجوز أن يتلقط بها وسع المجال. . .

بحكم الطبع: إن لكل شخصية إنسانية بعض الملامح الفارقة، ولكن الفكر المنطلق من قواعده المتينة والمتوحدة بذات المبنى، والمعنى، ووفرة الانسجام، لا تتأثر مضامينه بلمحة مزاجية لا قيمة لها في مجال الرؤيا!!!

من هنا إن بنية جسدية قامت بها هيكلية الإمام علي ـ وليست هي ذاتها التي انبنت بمثلها هيكلية النبي ـ لا تشكل بحد ذاتها فارقاً بين مهجتين تنبضان بحب واحد خافق بذات المصدر، كما وأن فارق السن لا يباعد بين مزاجين تدغمهما ببعضهما ذات الفطرة ونوعية الانسجام. . . فأنت ذاتك يا جعفر ـ كان الجد يتابع القول ـ وإن تكن تفصلك عن جدك الإمام علي مسافة زمنية، أو هيكلية بدنية، فإني أقول: ليس في الفاصلتين ما يؤلف فارقاً ما بينكما، إذا أنتما تتوحدان بذات الفكر، ونفس اللواعج!

هكذا نرى أن الاستفهام الذكي راح يستدعي الإمام زين العابدين إلى خوض عميق وموسع، كانت تتطلبه الكشوفات النفسية، والفكرية، والمزاجية في بنية الفتى المستعدة إلى أي تلقُّف، مهما عمقت مضامينه، وهكذا امتلأت السنوات الثلاث الأخيرة بشروحات وتحليلات بعيدة الغوص والروعة، تكاملت بها الاستعدادات النفسية، والعلمية، والبيانية، والروحية الرؤيوية، والإمامية عند الفتى المعجون الآن بحقيقة المفاتن!

إنها كلها مواضيع ستتوفر لنا إشارة إليها بتلميح ـ يكفينا الآن منه اقتضابه ـ قام بإلقائها في روع حفيدة إمام اسمه زين العابدين، تناول جده الإمام علي، وامتد به إلينا بسجادات أدبية ـ فكرية ـ بيانية، هي روعة أخرى في محاكاتها نهج البلاغة... وهو ـ ما عدا ذلك ـ رأس مدرسة جديدة راح يركزها بابنه الإمام الباقر، ويصقلها بحفيده الإمام جعفر، لتكون إصلاحاً لما أفسده الدهر في أمة لن ينتصر بها ولها إلا العلم المتوازي بثقافات منتجة حضارة تعيِّنها وتعيِّن لها سياسة عاقلة تمشي بها إلى تحقيق إنساني، وإلى إقامة عمران، وترجيح بنيان، وتخليص مجتمع من ذلٍّ، مميت، وحقد مشبع بالهوان!!!

ـ ٦ ـ

أظن الثقة التي أضحى الإمام زين العابدين يمحضها حفيده جعفر المطل الآن على تسع من عمره، هي في نطاق عزيز المكانة، مما دفعه إلى الخوض أمامه بالمواضيع الكبيرة التي هي: قضايا، وأهداف، وأبعاد فكرية، وروحية، ومصيرية، لا يستوعب كنهها إلا الأخصاء المميزون بالمواهب والصفات الكريمة واللدنية التي هي مزايا يجللها الذكاء، والصفاء، وأبهاء الرداء.

وكان في عمق إصغاء الفتى، أو بالأحرى، في نوعية وانفتاحات هذا الإصغاء، ما يضاعف حركية الخوض في أبحاث لا تجلوها إلا نبضية حاصلة من التمعُّن بها وتفهمها، وهكذا تم عرض الهدف الكبير الذي هو: قضية أمة عظيمة ما أراد النبي العظيم إلا أن يملأ وجوده وكنهه بالانضواء إليها، والتخصص لها باحتوائها بعداً إنسانياً نامياً ـ أبداً ـ بحركة الفكر، والروح، والجوهر.

أن يكون الهدف ـ بهذا القدر ـ كبيراً، وعظيماً، وجليلاً، فلا شك أن تحقيقه الملم به هو الأكبر، والأعظم، والأجل، ولكن من يحققه

سيكون هو المبتدي وليس هو المنتهي، وسيكون هو المصمم وليس هو المنفِّذ. . . لأن الأمة المقصودة هي مسافة أكثر مما هي مساحة، بمعنى أن الزمن النابض لا الراكد، هو الذي يمشي بها إلى تنفيذ التصاميم التي تتلون بها حركية الزمن، وهكذا تكون التصاميم تعبئة المسافة التي لا تنصرم، والتي هي عملها الدائم والمتجدد في حقيقة التفاعل الإنساني الحي.

ليس القول هذا ليجرد الأمة من مساحات أرضها، وإنما هو لتخصيص المسافات بالفاعليات الملقِّحة المساحات بإنتاجها الثمين المخصب، وبدون اللقاح الذكي، تموت مساحة، وتيبس واحة!

والأمة التي اعتزم النبي الكريم تمتينها بالمسافات، هي التي احتجر من أجلها الغار في خلوة مستعينة بالذات، مستنزلاً فيها التصاميم الضابطة كل الشؤون الحياتية المترتبة بها الأمور الروحية، والفكرية، والإجتماعية في مسيرة الأمة الناهضة بفاعلية وقابلية الإنسان. . .

وكانت كل عناصر التصاميم مشتقة من تزاوج الروح بالجسد، بامتصاصهما عبيراً نازفاً من عشق متماوج بأديم الأرض وأريحيات الفضاء، في تفاعل حركي نابض بخلود سرمدي لا تتنفس إلا به ألوهة الخلق التي هي نعمة الوجود في استمرارية المطلق.

ولم ير النبي الكريم من أسوار يسوّر بها هذه التصاميم التعاليم، أبهى وأنقى من هذه المسماة: بالحق، والعدل، والخير، والمعروف، والصدق النامي بالعفاف الثابت من مطيبات المزايا. . إنها كلها الموزعة في تسوية الأمة وضبطها في ميزان يقيس أعمالها، ويحوّل إنتاجها إلى تدرج حضاري يعين مقداره كف العلم المتحرك بالفهم والإدراك، تجمعهما مسافات العمر من حقولها المنتجة.

وهذه التصاميم التي وزعها ورسم بها معالم القرآن، هي أهرامات مسنونة ومشدود بعضها ببعضها الآخر، في ترابط اجتماعي، تشريعي، حياتي، إنساني مفتوح باجتهاد مطلي بالسماح والندامة والغفران، كأن

إصلاح الخطأ في الإنسان، لا يقوم بالزجر والعنف المذيِّل بالضيم، أكثر مما يُطيب بلمسة رحمة تملأ الجوانح بالحب، والضمير بروعة الإيمان.

وليس الكلام الآن إلا عن النبي، نبي الإسلام، وهو هكذا، في جوه الخافق: إنه الإسلام، وقرآن الإسلام، والأمة التي هي مدى الإسلام... وإنها كلها استيحاءات بعيدة الأغوار ـ وتبقى غماماً في غمام ـ إن لم تتكثَّف إطارات منيعة، تترسخ بها بنية الإنسان الذي هو المحور الوحيد في رصيد الأمة المفتشة ـ أبداً ـ عن دهشة المطلق.

وتابع الإمام تركيز البحث على خطوطه المرسومة، والفتى جعفر بين يديه في تمام الإصغاء إلى جوهرية المقاصد، وهي كلها أبعاد قصية المرامي ووسيعة الدوائر، تبدأ من نقطة محدودة كأنها الصفر الصغير، إلى انطلاقات المسافات التي لا تقيسها إلا مشعات البصائر... بهذا المعنى المريد استأنف الإمام المجال:

ـ وجدك النبي يا جعفر، هو الذي نام في عبه طول المجال، لا ليقيسه أمامنا بخطوات قدميه، بل لتمشيه الأمة ـ وقد راح يسوِّرها ببنود الآيات ـ بنعالها المقدودة من ثقل المسافات المشدودة ببيانات الآيات الناطقات بكل ما يجعل المسافات نابضة بالجلوات!!!

ـ إنه اليوم المديد الآتي يا جعفر، لقد رسمه ـ أيضاً ـ جدك النبي وهو يضم إلى صدره صنوه الآخر!

ـ إنه جدك علي، ربيب ابن عمه النبي، وزوج ابنته فاطمة، عديلة مريم، وزهرة نساء العالم؛ وأم جديك الحسنين المثيلين بأصفياء الجنة!!!

ـ وعلي يا جعفر، وإن كانت قامة جسمه أقصر من قامة جسم ابن عمه الرسول بمقدار كبستي اصبع، أو كان صدره ـ ربما ـ أعرض من صدر النبي بسماكة كف... فإنه كان منه بأروع ما يكون:

الاعتزام، والانضمام، والانسجام، والالتحام: فكراً، وروحاً، وصدقاً، وعزماً. . .

وصمت الإمام زين العابدين: على دمعتين سرحتا من زاويتي عينيه، بموازاة أنفه الأقنى، وانصبت على شفتيه المتكلمتين، والمشدوهتين بالذكرى!!! فانكفأ على حفيده المأخوذ بجلالة الإصغاء «في نأناة» كأنها اعتلاجات دفينة في حنايا الصدر، لا تعرف كيف تتفسر، أو كيف تتفجر!!!

بعد هنيهات من الصمت المولع بذاته، تلملم الإمام ـ وحفيده بين يديه ذاهل يتأمل ـ وتبسم وهو يقول: لا يجوز أن تفصلنا الاعتلاجات عن دائرة نحن منها في الصميم. فارجع إلي يا ابني واسمع: لم يكن جدك علي، من جدك الرسول غير ما رسمت لك. . . لقد كان القطبان العظيمان في تداخل روحي وفكري شديد التماسك والتكامل؟! قد تكون لجدك الرسول أسبقية في طرح القضية العظيمة على مسارح النفس، وذلك بالنسبة إلى تقدمه في مجال العمر، وتمتعه المسبق ببادرة النضج. ولكن التسارع الملح إلى التفاتح، والتشاور، والتداول، لم يكن منه ـ مطلقاً ـ غير انسياق إلى وحدوية رائعة في حقيقة التبادل، والتعاطف، والتراسل. . . فإذا ما سمعنا الرسول يقول: علي مني وأنا منه، فذلك هو الدليل الواضح والقاطع، على التحام المدى الجامع القطبين في واحد.

وتابع الإمام مجريات البحث بنبرة جديدة وهو يقول: شُدَّ إلي الآن يا جعفر أذناً ثالثة، فإني أريد أن أسأل: ما معنى التشديد يا بني على ائتلاف بين النبي وعلي، يدغم طالبيّين في واحد؟ وهل صدق أو أراد بنو حرب اندماجاً من هذا النوع المصفّى، يتدلل به عليٌّ، ويحرم منه عمر؟ وهل كان النبي يفضِّل علياً على أبي بكر، لو أن المفاضلة لا تحمل سرها الأروع؟؟

قد يكون الجواب ممسوحاً بمراوغات: لأن النبي ـ مثلاً ـ يحب مَن

زوجه ابنته فاطمة، أكثر من أي سواه، وهو ـ فوق ذلك ـ طالبي!!! فلنترك لهم الأجوبة المتعلقة بالرفض والمخاتلات ـ وإنها ذاتها هي التي لم يرشدها المنطق، ولم تتكشف لها روعة الغايات ـ وليكن لنا، من حقيقتنا، صدق يلبي واقع الفهم، ومهمة الإدراك!!! فالنبي العظيم المأخوذ ببهجة المطلق، ما كان له أن يرى الأمة في يوم واحد طالع مع مفرق الشمس، ومساء واحد هابط مع أفول الغروب ـ إنما هي عنده ـ انسياق إنساني متنام ومتكامل مع مآتي الدهور، ولا قيمة لها إن لم تكن أغزر وأبعد من مجادل الدهور!! وإلا، فهي قحف محصور بقبيلة نازحة من مرعى إلى مرعى، حتى إذا ما شحَّت غيمة، يبس الكلأ، وتزعزع الوتد، وانهدر الطنب!

إنما أمة النبي هي التي يريدها كبيرة وعزيزة كما سبق وفهمنا يا جعفر، وهي التي أرادها رسالية خالدة، وهي التي استنزل لها التصاميم المتطورة مع تطورات العصور، وهي التي لا تعيش إلا بحضاراتها الإنسانية، وليس بتقاليدها الأمية، وهي التي تلقِّح المسافات مساحاتها وهي ترويها بالعباب!!!

إذا كانت الأمة هذه ـ وهي التي تعيش حلماً في شعاب روح النبي ـ هي المطلوبة، وهي المرسومة ـ عنده ـ في حزمة التصميم، فإن المجالات الوسيعة والمديدة، هي في رهوناتها الموصلة إلى مدارج التحقيق... وللتحقيق الكبير مداه الأكبر الذي هو: تدرُّج علمي ـ اختباري ـ إنساني وإنتاجي منظَّم، يدفع المجتمع خطوة خطوة إلى مراقيه الطالعة من حبكة أوصاله، في تعبير عنه حميمي الأصالة، وحراري الجهود، في صدق خلقي مؤمن بكل ما في النفس من منازع مطوية في السجايا الطيبة التي هي سمة العظمة في خلود مجتمع الإنسان...

وصمت الإمام دقيقتين طويلتين ـ وخشع الفتي خشوع دهر ـ ثم ارتجع الإمام إلى الكلام:

ـ هنا يا جعفر..

تكمن طالبية . .

رائعة اللحمة . .

ورائعة التخطيط!

هلاَّ تأمرني أفسرها لك؟!

وتواً انطوى الفتى العملاق ساجداً ـ على ركبتيه اليانعتين ـ بين يدي جده الرابض في سجوده البازغ بالرهبتين: رهبة الصدق، ورهبة الإتزان، قال الإمام:

؛ وأي معنى لاندغام يتكامل به علي بالرسول؟! إن لم يكن منه انبجاس تخطيطي ترتبط به قضية تأهيل الأمة في مسيرتها من يوم صغير إلى غد يكبر بكل لواعج السنين؟! وإذا كانت الأمة هي المحتاجة إلى تواصل في العناية والتدريب على خط موحد ومتكامل بالتبويب والتصويب، حتى تبقى الجهود كلها هي المتتابعة والمتلاحمة في الأداء المدعوم بسور التصاميم ـ أجل، إذا كانت الأمة ـ لبلوغها العظيم ـ هي المحتاجة إلى الغد الطويل الذي لا يجوز أن تتوقف ـ عن السير ـ عقارب ثوانيه، وإلا فإن المدى الذي يتلعثم، هو القبر المدلهم العقيم لجهودها المتوقف عنها تتابع التنظيم!!!

أجل، يا جعفر ـ ولم يرد النبي السخي، ولا علي الرضي، إلا أن يكون رباط الغد ابن تصميم مرسَّخ في متون الغد، حتى تبقى الأوردة مليئة بذات الدم المصبوب في القلب، والدماغ، والرئتين في إيصال الجسم إلى العافية المستمدة من أشعة الشمس وتيمنات السحب.

وهكذا يكون لك يا إمامي الصغير أن ترتبط بإمامة كبيرة ومديدة وسديدة، ركزها جدك النبي، وربطها بنجادها الأمتن والأسخى، والذي هو جدك الآخر، علي أمير المؤمنين.

إذاً . . . فالأمة المحتاجة إلى ذخر ومَعين، لم يتركها وليها الأمين بدون ملاذ يتدبرها بالذخر والمعين، فاشتق لها ـ من ضلعها ـ إمامة

مشدودة الأطناب، والأوصال، والأوتاد، بولي مشقوق من نبي ملتهب بالولاء لأمة يشتهيها الحق إلى بلوغ يجعلها ساطعة وهادية لكل أمة من أمم الأرض.

إن للإمامة المبتكرة هذه، معاني وأبعاداً، يا إمامي الصغير، لا يجوز لنا بتاتاً إلا أن نتفهمها، ونستجلي مراميها، وإلا، فإن الأمة كلها في غبار من أغبرة القطيعة المتمادية إلى جهل يعتِّم لها السير في دروب الحق، والحق هو: علم، وفهم، وإدراك... ليكون ـ بدوره ـ يقيناً، وإيماناً، وتحقيقاً... ثم مجتمعاً إنسانياً بانياً ذاته.

وركز الإمام على فتاه الكبير عينه المفتوحة، فوجده لا يزال منتصباً في سجوده المصغي، فتناوله بذراعيه وأقعده وهو يقول:

ـ فلنفكَّ سجودنا يا بني، ولنجلس إلى استراحة نأخذ بها استكمال الحديث، وتمَّ الجلوس، واستؤنف الحديث الذي هو ـ من أوله إلى آخره ـ حديث الإمامة.

ـ ٧ ـ

نحن الآن في الإمامة، نجول قليلاً في مبانيها، وقليلاً ـ أيضاً ـ في استنباط معانيها. أما الجليل الآخر: أكان في المبنى المطل على الشرفات، أم في المعنى الهاجع في الحدقات؛ فإن الغد الميسَّر لك ـ يا جعفر ـ هو الذي ستحفر فيه تنزيلاً يزيل عتمة بإضاءة شمعات تستنير بها دروب الأمة المنتظرة استكمال الإضاءات، وتخفيف الظلمات! إن الإمامة كلها هي آية الرصد في عملية استكمال بناء الذات.

وانرصَّت الإمامة بشكل «لولبي» دائري: يبتدىء بعلي، ويستمر بعلي، ولا ينتهي إلا بروحية علي التي هي وصول لا يجوز أن ينتهي، وهيمنة قيمية لا يجوز أن تزول، بمعنى أن علياً ـ بحد ذاته ـ هو طاقة

علوية باشتقاقها الإسمي المعنوي، وبانطباقها الإلتحامي بالنبي، في موازاة انطباعية عزيزة الامتثال. . . وهكذا لا يجوز، للأمة المشتهاة، إلا أن تركز على نصاعة علي، ولا يمكنها أن تستمر إلا بنصاعة علي. . . وإلا فإنها المبعثرة بفقدان النصاعات!!!

ولنصاعات علي شموس باهرة: إنها حق مليء، وعدل واضح، واستقامات نزيهات، وصدق بهي، وخلق موشى بالمكرمات، وإيمان يشحن النفس بالتقوى المبلسمة بالرضوان، وعفة أبهى من الزهرة!!!

هنا انتفض الفتى المصغي بشوق معصور من قضيب البيلسان، وقبَّل بنان جده الملهوف بمحبة الموصوف. . . وقال جعفر:

ـ أجل يا جدي العظيم. . . وعفة أبهى من الزهرة، وأنقى من الميزان، ومن كل واحدة من نجومه السبع!. . إنه جدي علي. . يا امتداده في الشوق العفيف، ويا صنوه ـ أنت ـ في النقش المميز بروعات البيان!.

وتبسم الإمام زين العابدين وهو يتلقى بصدره الحنون رأس فتاه المنضم إليه بوجنتين طريتين كالعندم، وبعينين فائضتين بغمزات النجوم، وأردف يقول:

ـ أجل يا جعفر. . . وسيكون لك ؛يا بني ـ أن تسبر الأفلاك كلها، من دبها الأصغر، إلى دبها الأكبر، وتزيِّن بها ممرات الرخام. . . فهنيئاً للأمة، تصغي إليك ـ غداً ـ تعلمها كيف تأكل ما يقيتها، وكيف تصحو من منام، ومتى تنجو من ذل، هي حاكته بالتمام!!!

تلمَّظ الإمام النادرة هذه التي فاه بها، ثم استعاد الحديث:

ـ أجل يا جعفر. . . لو لم يكن جدك العلي ندرة في عمر الزمان، لما كان جدك النبي ليوشِّي به أعطاف المكان. . . لقد حسبه ابن الخطاب طالبياً يقتطع من أمامه بهرجان السياسة والزعامة، ليحتكرها في صلبه، بينما النبي البعيد المرائي، اختصها كلها به،

لا لأنه طالبي. . بل لأنه أطروحة فريدة المنال في تركيز الأمة على المدارج العظيمة التي تكون ـ وحدها ـ في بلوغ المجال. . . وهل يبني الأمم، غير تضافر الصفات المستقيمة، والمستديمة بغير انقطاع؟!!

ـ ولم يكن علي ليعيش أكثر من فسحة عمر، إلا أنه كان أرجوزة من بحر المواهب، حتى إذا ما تهذبت به في الأمة أسبابها، وأوتادها، ودمجات قوافيها. . . فالأمة تلك هي المستكينة في مجانيها، والمستريحة في نجاواها. . . وعند ذاك، أين هم بنو طالب، أو بنو حرب، أو بنو مخزوم؟! وكلهم أمة الإسلام، في وحدة من عبير الحق، ومزاهر العمران، تلف الدهر بالزهر، والإنسان بعبقرية الإنسان!!!

وانشدت الإمامة ـ وهي الطالبية في الزمام ـ والطالبية في ردح النبي، هي الصفات الأريحية المطلوبة «تخصيصاً» في بنية الأمم، ولا شأن لها بالعصبية المعصوبة بها بدوية الرعيان. . . وهكذا صاغها حرص النبي حرزاً من اثنتي عشرة نصلة مسنونة ومنقولة بالإرث: من أب، إلى ابن، إلى حفيد، على أن يُطبِّب النقل تعدد الأثقال: ثقل من فهم منخوب، وثقل من علم مجتنى، وثقل من مران يأتزر به جيلان أو ـ ربما ـ ثلاثة أجيال: من جد، وابن، وحفيد. . . وثقل من تربية مميزة برتبة الإمامة، وثقل مرجَّح بمسؤولية إرادية وإدارية تتناول الأمة جمعاء.

إن الأثقال كلها تميِّز وترجِّح قيمة الإمام، فهو أكثر من عادي، وأشمل من أي مسؤول، وأدرى من أي مختص. . . أما العدد البالغ الاثني عشر، فمعناه في التسلسل المديد، امتداد عمر الأمة في ظل العناية الفائقة، إلى ما يقارب الخمسة حقب، تكون كلها في رديف واحد، متسلسل من هدف واحد، هو الهيير بالأمة على خطها الصاعد المتنامي: بالحب، والخير، والمعروف، وكلها توزيع صادق ومدموغ بكل المواهب

النزيهة المعصومة التي يعيش بها ـ خالدة ـ الإمام علي أمير المؤمنين.

بعد مرور ما يقارب الخمسة حقب، تكون الأمة قد أحرزت ـ من طول المران، وانطباعات المراس ـ ما يؤهلها في تمتين خطواتها في المسيرة الصاعدة بها إلى كل تحقيق حضاري يمتعها بإنسانية «منتصرة» على الجهل، والذل، والهوان. . ومعززة، بالنصاعات الباهرة التي يتكرم بها وجود الإنسان. . .

وسيكون انتصار الأمة ـ بعد هذا الترتيب المعد والمستجد، هو الحاصل الأكيد المنتظر ـ ليكون الإمام الثاني عشر ـ فيما لو تسنى للإمامة انعقاد في خطها المرسوم والمقرر ـ هو المنتظر.

ولكن الأمة لم تسمح لها العفونات العتيقة بوضع الخطوة الأولى المتينة على الطريق، وبقيت الإمامة خطاً مقطوعاً عن سويات الطريق، وسيبقى الإمام الثاني عشر منتظراً وصلة الخط، لتصل إليه مقومات الطريق!

قال الإمام كل ذلك بحزن طافح، وعلى الرغم من أن الحزن ينهكه، فإن صبراً مؤمناً بقي يسنده في المثابرات التي هي عزم، وجهد، وتصميم. . . فاستراح قليلاً ثم استأنف العرض:

ـ ٨ ـ

لم يكن العرض أكثر من شكوى مرة، نوجهها إلى خط «سياسي» تلطّى بإسلامه، ولم يتطيب بإمعانه! صحيح أن ابن الخطاب دوحة في إسلامنا المتبصّر بالنبي، ولكن الصحيح المؤلم أن لا يصيخ ابن الخطاب بسمعه إلى كل ذبذبة «إشارية» كان يلوّن بها النبي البعيد الآفاق، مراميه وغاياته!! وهل لابن الخطاب أن لا يلمح كل خافقة، كانت تخفق بها مشاعر النبي، ومقاصد النبي، وكل صياغات النبي؟!! فإذا كان ابن

الخطاب هو اللماح الأول الذي انصاغت ـ من قوة لمحه ـ بنيته الإسلامية النبوية المحمدية، فلماذا لم يستبشقّه اللمح الدقيق إلى تمجيد الإسلام ببعد أفقي آخر وأروع، صاغه نبي الإسلام ـ بالإشارات الزاهيات ـ وزرعه في تركين إمامة أبجدية ـ إنسانية، تخصب أمة الإسلام، وترجِّحها بالهداية؟!

ـ لست أدري.. يا جعفر؟ كيف بلانا ـ إسلامنا ذاته ـ بحجر مقتطع من صخرنا نحن، حتى يحطمنا ـ نحن ـ أهل البيت، ويحطم الأمة كلها التي هي ملاذنا كلنا في رجاة النبي!!!

وحصل التحطيم، واستبدل عند قوم منا، اسم الإمامة باسم الخلافة... وليست الإمامة من غير كنه الخلافة!!! يا لتعاسة الاشتقاق والانبعاث!!! وراحت الخلافة تمعن بتخزيق الخواصر! كأن الخواصر هي خواصر الشيطان، لا خواصر الأمة المحتاجة إلى نباهاتنا الإنسانية!

ـ لماذا أبعدت الإمامة عن مهجة الساحة أو اقتطعت عن خطها الفاعل! أو هددت بالحذف المميت! أو أرجف عليها حتى تطمرها التقية تحت الأرض فلا تنبس بشفة؟!! وأنا أجيب يا ابني بلهجة جديك العظيمين: النبي وعلي:

ـ لأن الزعامة القبلية والبدوية، هي غير السياسة المركزة على ضبط أمة لا تجمعها للحياة إلا الاهتمامات بكل شؤون الحياة، ومن أجلِّها العلم الوسيع الملم بكل هاتيك الشؤون... ولو لم يكن الحق والصواب في ذلك، لما قصد النبي الكريم نقل الإنسان في الجزيرة، من شرذمات القبائل إلى وحدة الأمة القوية بإنسانها الفاهم الفاعل... وأيها الأجدى؟ ألف قبيلة في ألف أمة!!! أو أمة واحدة بملايين الإنسان، وآلاف القبائل؟!!

إني أرجو ـ بعد هذا القول ـ أن لا يسلني أحد عن أذن ابن الخطاب، كيف أصغت إلى صدى صوته العتيق فلبَّته، ولم تصغ إلى نبرة الصوت الجديد فأغفلته!!! سيكون علينا أن نتحمل نكداً صغناه ـ نحن جميعاً ـ من

كيدنا الأعور، ولن يمحوه من قدرنا الذي هو قدر الأمة، إلا الأمة بالذات!!! فاسمعني يا جعفر:

- نحن الآن في فاصل جديد، أوصلنا إليه السبب الذي أوقعنا وأوقع الأمة كلها في التفكك والضياع، والحرمان!!! لقد تمكن الكيد من حذف الإمام الأول من خط الريادة، وخط السياسة الواضحة التصميم، وغرس في خاصرته نصلة عطلت عزمه الفاعل!!!
- وتمكن استمرار الكيد من حذف الإمام الثاني ـ الحسن ـ من الساحة المرسومة!!!
- ولن أتمكن ـ إلا بإرادة ربي ـ من تجميد الدمع على أبي الإمام الحسين، وهو الثالث الذي مزقته عاشوراء بألف سهم، ولفته بالأوتاد والأطناب!!! وأوصلت إلي إمامة مشلولة بأراجيف البهتان!!! ولكني تصبَّرت. . . ولكن المهم، أني عزمت:
- عزمت ترك السياسات التقليدية لأصحابها البهلوانيين، وانصرافاً مجرداً إلى تمتين وتلقيح الجذور، جذور الأمة التي هي الركن الأساس. ولقد قلت لمن هم اليوم خلفاء: فلتكن لكم من الخط كل زعاماته، فاتركوا لنا ـ من البث ـ تجميع مفرداته! سيكون لنا من تجميع المفردات عمل يلهينا بتأليف الجمل، ليبقى لكم عمل تتلهون به بتأليف العظمات!

وتم الاتفاق المبطن باللهوات ـ ولكن اللهوات هي موضوعي الكبير يا جعفر، أحب أن أتمادى به قليلاً معك، حتى تدرك مثلي أن ليس للّهوات شيء من البراءات، وإنما هي اشتقاق، ويا ليته ـ فقط ـ من السذاجات. . . بل إنه من التفاهات المدعية أنها ملح الدهاء!

منذ أن انتقل النبي العظيم إلى العالم الأعظم، والأمة التي هي حلم الرسول في الدغدغة المثلى، هي المتأرجح بها بتفاهة اللهوات، وبدلاً من أن تبدأ الأمة لحظتها الأولى بتنفيذ العهد، وتظهير القصد، راح بها الغرض

المريض إلى تفسير الوعد: هل هو وعد «ع» أم هو وغد «غ». . وهل علي هو: علاء؟ أم أنه: غباء؟. . وكيف تحبل الأمة وتلد إمامة! والخلافة هي البكر في عمليات الولادة!!!

أجل يا جعفر، وبدأ التلهي بإنكار التجلّي، وبإغراق الرهن في عتمة الظن، وبغسل الشط من زبد البحر، وبإطفاء الشمس بموجاتها المشعة!!! أيكون التلهي هذا ـ وفعلاً هكذا قد حصل ـ من فيض السذاجات؟!! أم أنه من أمكر التفاهات؟!! وهكذا ابتليت الأمة كلها، من يومها الأول الأخرق، إلى يومها الحاضر الأحمق ـ بفيض من لهوات ترهات ـ وإننا الآن نحاول ـ نحن كلنا المتلهين ـ أن نمحوها ـ وأيضاً ـ بالتلهي!!!

ـ لقد تلهى بنا كثيراً بنو حرب، وحاولوا إغراقنا في لجج اليم، لتأكلنا الحيتان!!! ولكن تلهيهم بالجور، والظلم، والاغتصاب، ألهاهم ـ أيضاً ـ عن حقيقة الاهتمام بجمع قبائل الأمة في وحدة راشدة فهيمة، تجعلهم ـ بها ـ راشدين أقوياء، وها هم الآن ـ بعد عقود طويلة، وفي ظل الزعامات الكافرة والبائسة ـ يلجأون إلى تله جديد، يفتشون به عن قوة تحميهم من دوس النعال التي يهددهم بها تكتل قبلي آخر، يحضره ـ هنا وهناك، في الساحات العريضة ـ بنو العباس!

ـ وبنو العباس؟ إنهم خط ثان من قبائل الأمة الذين لم يجمعهم بعد أي وازع من علم، وتوجيه، وتنظيم! إنهم ـ أيضاً ـ يتلهون باستعدادات طاغية تمكنهم من سحق الخصم، بني حرب، والحلول مكانه في مقاليد الزعامة. . . لو أن الإعداد هذا يدل عليه نهج حكيم فهيم أو قويم، يبشر به رشد الأمة وانتظامها تحت راية الرفض الآلي، والسليم، لكان القول فيه: لا يسمى بالتلهي الرخيص، بل بالثورة التي تتلهى بتحريك الساحات، ليكون لها وصول إلى التحقيق الجدي الثمين!

ـ وأيضاً ـ بنو العباس ـ لا يبدو أنهم صادقون: فللصدق علامات تشع منه كما تشع من كل معدن كريم ذريرات إشعاعاته. وهكذا بنو

العبّاس، فإنهم لم تشر إليهم مثل هذه العلامات الثمينة... وويل للأمة من وباء «مطل»، سيكون أشد فتكاً من أخيه المولّي!!!

ـ ومثلما تلهى بنو حرب: سلباً ونهباً، سيتلهى بنو العباس: دهكاً وفتكاً، ليترك لنا الملتهيان عنا الآن، ما نتلهى به عنهما لتحقيق الرهان، وهو الانصراف عن خط يتصارعان عليه: لمصٍّ لحم الأمة، وكسر عظمها، إلى خط آخر، نجمع لها فيه ما يثمن لحمها بالعوافي، وما يقي عظمها بالصلابات!

ـ على كل حال، إنها رسالتنا التي لا يجوز أن نتلهى عنها في مطلق الحين، إنها في تصميم جديك العظيمين نازلة في روعتي القرآن ونهج البلاغة، على أن تكون علماً مضموناً: بفهم، وحق، وهداية...

والعلم ـ وحده ـ هو جلوة الذهن، وجلوة الحق، وجلوة اليقين: وهو الذي يطيِّب صدر السياسة، وينجي الأمة من جهل عقيم: بقدر ما يتشبث بها يهزلها، وبقدر ما تتخفف منه تستقيم.

وإنما هي الأمة: إذ يجلوها العلم، ترفض ـ هي ذاتها ـ كل سياسة يعتِّمها الذل، والجهل، والغباء... وتعيِّن ـ هي بالذات ـ ثانية بدلها، ترجح بالحق، والعدل، والجمال!..

سنترك السياسة الكاذبة المتشبَّث بها، للمولهين الكاذبين، لنستجير بتلك الصادقة التي يبهو بها العلم، وينورها بالمعارف... وعندئذ فالأمة هي المستنيرة، وهي صاحبة الرفض، وصاحبة القبول... وما لم تكن ـ هي هي ـ صاحبة المجن، فالصدور كلها هي المهدورة!!! والحق الذي ننادي به ـ لتسوير الأمة ـ هو ذاته المفجور والمهدور!!!

لم يسكت الإمام أكثر من لحظتين، ثم استدار نحو حفيده يقول:

ـ لبيك يا جعفر...

والجامعة التي انكفأت متجرداً لتحقيقها بالتعب الفريد، وساعدني

ـ في تعهدها ـ أنقى وأتقى رجل برز في بني حرب، ألا وهو: عمر بن عبد العزيز، فهي الآن المتوسعة لاحتضان كل المواد العلمية التي انصبَّ على إحرازها وتسجيلها كل أجدادك القدماء: من بني سومر، وأكاد، وآشور، وكنعان... وأبجدوا بها حضاراتهم، قبل أن يلوي بهم الدهر إلى صمت، وانطواء، وخواء... لقد جمعها أبوك الإمام الباقر، وحجزها بحروفها الصغيرة، حتى يتفهمها وينطق بمعانيها الكبيرة، ويجعل منها منارة للأمة، تبني بها ـ رويداً رويداً ـ شؤونها، وأشواقها، ومجانبها.

وليس أبوك ـ وحده ـ يا جعفر، هو الذي تبصر به جدك النبي، وتمناه لبقر العلوم وبسطها ذخراً للأمة... فأنت ـ أيضاً ـ في حلقة التمني، من أجل أن تكون عقدة صدق في الخيط المعقود بالإمامة، فهل يكون لك من وهج ما هو منقول إليك من لهفات كبار، غير مهمة الترسيخ، والبروز المباشر؟!!

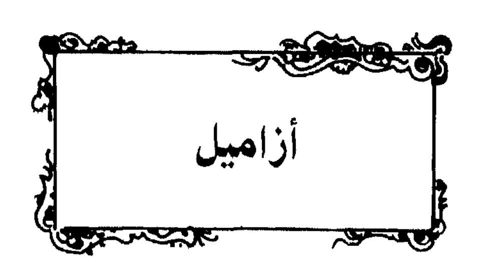
أما أنا يا بني ـ وقد أشرفت بي الأيام الساجدة على المطل الكبير ـ فلم يبق لي إلا صلاة أصليها لك، ووصية أربطها في أذن الأمة:

ـ وصلاتي أن تكون أنت رحب الصدر، في الأداء الصعب، فالأمة كلها في غفوة لزجة، لا تكفيها هزة واحدة من جهدك حتى تعيك في التعب الطويل... فتحمل من أجلها صبراً شفوقاً، وعِدها بمن يكمل بعدك الخط الطويل... عِدها ـ أيضاً ـ بالمنتظر... حتى إذا ما اكتمل الخط إلى المنتظر، فالأمة التي هي من معدن كريم، هي الواصلة إلى التحقيق الكريم المنتظر.

أما إذا انبتر الخط، كما انبتر من قبل، وما عاد فاكتمل، فذلك معناه: أن الدهر لم تكتمل بعد ـ علينا ـ مِحنه وعِبره، وأن الأمة لا تزال محتاجة إلى معانيات أخرى، تنتظرها حتى يتم انصهارها، ثم سبكها من جديد.

أما الإمامة ـ وأنت يا جعفر خيطها المعقود ـ فإنها تبقى في مجالات التبصر، تستنير بالحق، والحق ـ دائماً ـ هو الملاذ المنتظر.

أما وصيتي للأمة: فأن لا تظن العلم غير نور الله في الأمة، وأن لا ترصده كما تُرصد الدوائر في انقفال الخطوط، فهو أوسع من أن بكون انفتاحاً في حلقات الزمان، وإنه الزمان الذي لا ينتهي من دائرة الحق التي لا يسرح فيها ـ إلا الله ـ بمدارك الإنسان.



أزاميل

لا أريد أن أصدق أني ما كنت حاضراً أو مصغياً إلى جميع الجلسات التي عقدت بين الإمام زين العابدين وحفيده جعفر... فكل كلمة كان يوجهها الإمام العملاق بسجوده الناطق بالمخمل، كنت أراها منزلقة من بين ثناياه الممسوحة بالورد، كأنها رؤوس أزاميل دقيقة ورقيقة، ولكنها منداة بما تتندى به بتلات البنفسج في هلهلات الصباح... وكنت أراها، في انسياقها البتول، كالانهمار في أذن الفتى جعفر، كأنه ـ كله ـ بوق أذنه المشدودة بإحساس «نفسي» يلتهم ما ينهمر إليه، كما تلتهم نجمة الصبح كل هالات الصباح!

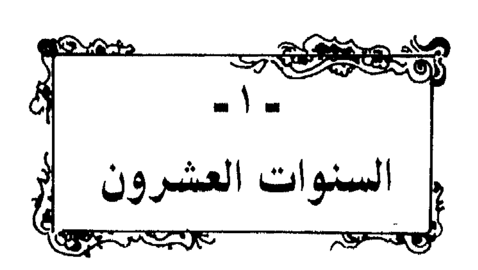
فعلاً كنت مأخوذاً بما أرى بعين النفس التي هي من شفافيات الفضاء، وبما أسمع بأذن الشوق التي هي إصغاء لنهدات الضياء... وكانت كلمات الإمام شفافة بانزلاقها من معدنه الصادق الجوهر، وكان نزولها حفَّاراً في بلُّورة جعفر، لأن المحفور فيه هو من خميرة وحذاقة الحافر، في ألمعية مربوطة بذات الجذع ونفس الجذور!

وإني مزمع أيضاً على الحضور، وعلى الإصغاء إلى جميع الجلسات التي ستعقد بين الابن المميز بأذن معمقة القعور، والأب المنتدب إلى تنوير القعور بثريات الذهب. سيقوم الأب الباقر بعملية تفجير العلوم وترقيمها في سلم التسجيل، ليكون للابن جعفر حضور المتروي في الانسياق الآخر الذي هو تبحُّر في وضع المجاذيف في أماكنها من صدر السفينة، وجعلها تفعل.

أما العصر الذي انتهى بقلب القعب على رأس الشارب منه وخنقه فيه عطشاناً؟! فإنه سيبتدىء بالسفاح العباسي الموزع المواعيد الملونة، والكاذبة بتحقيقها بعد استتباب الترسيخ وتذييله بالأمن العباسي الأخضر!

سيكون لجامعة الإمام زين العابدين سماح تتلهّى به بقيادة الإمام الباقر، ليتم لها ازدهار مميز بابتعاد المواد العلمية عن أظافر السياسة، وبتجردها للعلم فقط.

أما جعفر، فأمامه الآن مهلة أخرى تمتد معه إلى أكثر من عشر سنوات يقضيها مع أبيه: تلميذاً، ثم أستاذاً مشاركاً في توسيع وتركيز العلوم، وفي البرمجة، والتنقيح، والتفسير، والتوجيه.



- ١ -
السنوات العشرون

والسنوات العشرون؟ إنها المدة التي استكمل الرشد فيها الإمام الصادق في ظل أبيه الإمام الباقر، وهي غير منفصلة عن السنوات التسع الأولى، وقد قضاها في الجامعة مع أبيه وقت الدرس، ومع جده في الفسحة الأخرى من بقية النهار، في جلسات تثقيفية خاصة، شاهدنا قسماً ثميناً منها في متن هذا الكتاب، وتخصيصاً في الصفحات المدرجة تحت عنوان «السنوات التسع».

ولا نظنن ـ أبداً ـ أننا استمعنا إلى كل ما صبّه الجد في أذن الحفيد... فإن ذلك كله، ما غطى ـ أمامنا ـ غير بضع صفحات، نقرأها ونستجلي معانيها في بضع ساعات... ولكن الجهد الكبير الذي هو اتصال قرير بأرومة جده علي، ما قصد أن ينقل إلى شطّ حفيده جعفر، إلا الحوملات البكر من البحر الأغزر، وهي ـ لو صح لنا إصغاء سمع ـ لما اتسعت لاستيعاب شروحها المجلدات:

أجل ـ ولا وقت لنا لاستفهام المجلدات عن مكنونات حروفها ـ ولكن زين العابدين تمكّن ـ في عدة سنوات ـ من إفراغ هذه الشحنات في خَلد من تمكن ـ بذكائه الفريد ـ من استيعاب معانيها، من دون أن يُنزِّلها ـ تحت عينيه ـ في حروف مبانيها... لا بل أن الشروحات الكلامية

[أسلوب شفهي من دون الاعتماد على نص مكتوب] كانت ـ وحدها ـ البيانية، وكانت ـ وحدها ـ الإزميلية الحافرة في النفس: أختام السجايا.. وفي العقل مجاري الفهم، وفي اللب أسراراً من النبل الكامن في خزائن النباهات المتمكنة منها لدنيّة العباقرة [أي من لدن الله كوحي ملون تجهد بعهد الاكتساب] في وجودية القلة الموزّعة في فصائل الإنسان.

هكذا كانت الشروحات الكلامية ـ في ذلك العهد القاصر، والغائبة عنه ملاقط التسجيل والتدوين ـ اعتماداً على أخذ العناوين المشهورة وتفتيقها بقوة الاستقراء والاستنتاج أو الاستنباط، على هدي العقل والذكاء في اقتناع المنطق المتلقط بإيحاءات العناوين ذاتها، ليكون الكلام المشبع بالتحليل والتذييل، أداة بيان مستنتج، لا علامة استشهاد بما هو مكتوب ومفسَّر:

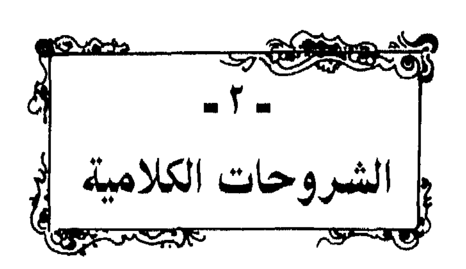
وهكذا ـ أيضاً ـ كانت شروحات الإمام الكلامية، تنزل في روع الفتى جعفر، للتبصر بها، ثم لاحتوائها بمنطق الاقتناع... وهكذا كانت متسعة في الشمول المتناول كل شؤون الأمة الحياتية بوجه عام... وشؤون الأمة هي الوسيعة، وهي الملمح عنها متدرجة على سلمها في إيحائية القرآن، بنوع أن كل ما يرتبط بشؤون الإنسان ـ من قبل أن يصير إنساناً، إلى أن صار، ومن قبل أن يبني وطناً وأمة، إلى أن رضي بها مقراً ومآلاً ـ هو في المحتوى الواسع المتناول المجتمع الإنساني في الأمة، بكل ما يرافقه من انحطاط أو تطور، أو بكل ما يطرأ عليه: من صحة أو مرض، وجوع أو شبع، وعطش أو ارتواء، وهو المذكور في الآيات من أجل الحفاظ على هذا المجتمع احتياطاً من الانفراط.

من هنا أن الشروحات الكلامية تناولت القرآن الكريم، وأخذت منه عناوين لا تحصى، وراح الشرح يتداول بها، تحت عين الفقه، وأمام رغبة المنطق، ومن هنا ـ أيضاً ـ كان الشمول غنياً في توسيع مدارك جعفر، بحيث أصبح لديه إلمام مطل على خطوات التاريخ، وماهية الجغرافيا،

والصحة، والأوبئة، وبنية الأجسام، ووظائف الأعضاء، وعلم الاجتماع وتكييفه بالحق، وحمايته بالعدل، وتهذيبه بمكارم الأخلاق.

ومن هنا ندرك ـ بنوع جليّ ـ أن الشروحات الكلامية بمطلقها، لم ينسِّقها إلا إمام كزين العابدين، يُعتبر فاصلاً جديداً في خط الإمامة، معتمداً ترك السياسة للمهووسين بها الكاذبين. ومتجرداً للعلم الوسيع، أداة فاعلة، يمرِّس بها الأمة لتنتصر على غباء المتزعمين الحاكمين، فترفضهم ـ بالتأكيد ـ من قدرها. . . ولا يبقى مجال إلا للأمناء الإماميين، يسيرون بها إلى ازدهار رسمه لها نبيها الأعظم.

أما الشروحات الكلامية فهي المتحولة ـ غداً ـ نضيجاً محكماً في إمام مدعو لأن يكون ضمير المعادلات في يقين الأمة، بجعل العلم فيها قسطاً من أقساطها المغتنية بالعزم الفاعل، والتحقيق المنتظر.



- ٢ -
الشروحات الكلامية

والشروحات الكلامية؟ إنها - كما نزال نلمح - خط، أو بالأحرى، نمط مكرّس في نهج الإمامية، وهو المعتمد الأكيد والسديد في نقل كل العلوم، والمعارف، والاختبارات المتوارثة من خزائنها القديمة والمستجدَّة في الحاصل الحياتي المكتسب. ليكون كل إمام - بمفرده - خزانة قائمة بذاتها، توزع الفهم والرشاد على الأمة المحتاجة - دائماً - إلى عين توسِّع لها مفازات الطريق. ولقد رأينا - بكثير من الوضوح - إمامنا العظيم زين العابدين، كيف ينسكب تسديداً وإرشاداً، في ذهن حفيده جعفر، قبل أن تصل إليه إمامة مقررة له بعد عشرين سنة، أو ربما أكثر... وهكذا كان تصرفه - بالذات - مع ابنه الباقر، ناقلاً إليه كل علم توسعت به ذاكرته، أو زادت عليه خبراته، ليكون لكل إمام - بمفرده - شرح غزير منقول إليه، ومتعدد المنالات: من أب، إلى جد، وربما إلى جدين... وليكون - لكل منال - حفر ملون به، يزيده خبرة، وثقافة، وتوجيهاً مرجّى... من هنا إن الإمام هو وصلة جليلة في العبور بالأمة من منال إلى منال، من دون أن ينقطع عنها حبل المدد.

والشروحات الكلامية؟ ما كان ليخفِّف من التطويل فيها، أو من الاعتماد عليها، إلا الكتابة المتسعة بالتدوين... ولكن الكتابة التي لم

تنقرض، حتى في العصر الذي استنزلت فيه سور القرآن، فإنها لم تتسع ـ إلا يسيراً جداً ـ بعملية التدوين. وهكذا استمرت الشروحات الكلامية لا تتناقص الحاجة إليها، ولا الاعتماد عليها، إلا في تدرج ضئيل: ابتداء منثوراً بأحجية الآيات، ومروراً مقهوراً بتفسير نهج البلاغة، وانتقالاً حزيناً، عبر انهدار الإمام الحسين إلى سجّادات الإمام زين العابدين، ووصولاً ـ حتى ـ إلى الإمام الباقر، يوسع بوابات الجامعة، ويشرقها رشقاً، بتفجير العلوم، وهو يعللها بالعناوين العلمية المنسولة من مخابئها البعيدة التي كانت غمراً حضارياً في أيام عز الأجداد الذين كانت لهم الكتابات المحفورة في لوحات التسجيل والتدوين.

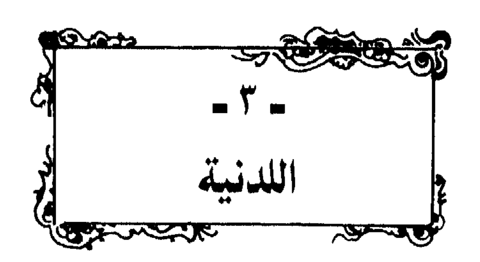
هنالك ـ في هذا البعيد المجيد المشبع: بالإخراج، والتسجيل، والتدوين ـ كانت الشروحات الكلامية ترداداً مملاً، لأنها كانت واضحة في الأعمال الحية الناطقة بها: الإنتاجات، والاستثمارات، والإزدهارات الفلسفية، والزراعية، والهندسية الحسابية المتكلمة بالقلاع والقصور، والفيزيائية الكيميائية المتخبئة في ضمير المعادلات، والطبية الصحية الخافقة بها صدور الأبطال... إلى كل ما تستعين به لزوميات الحياة... وذلك بعدد وفير من القرون السابقة تحضير اليونان والرومان في عالم الغرب، والصين والهند في دنيا الشرق!

وعلى الرغم من أن جامعة الباقر، بدأت ببثها العلمي المبارك، فإن حروف الكتابة بقيت شحيحة الرقص على لوحة القرطاس ـ أو بالأحرى ـ لم يكن أمام الحروف قلم مبري يحرّك الشوق في مهجة قرطاس!!! ثم إن المواد العلمية ـ ذاتها ـ لم تدخل بوابة الجامعة، إلا بعناوينها المجرّدة، والمعراة من أي سروال كانت تتزيا به عرائس القرطاس!!! لتستمر الشروحات الكلامية تملأ أجواء الجامعة: تفسيراً، وتحليلاً، وتنقيباً، وتذييلاً، حتى تضبطها ـ قليلاً ـ قبضة المنطق!!!

ولكن الجامعة ـ بمحاولاتها الكبيرة والمجهدة ـ كانت لا تقدر إلا أن

تبارك الشروحات الكلامية ـ وإن تكن غائبة عنها جدلة التدوين، وبصيرة التقرير ـ لتعتبرها سبيلاً موصلاً إلى كشف سينزل عيناً في بصيرة التقرير. . . وها هي السنوات العشرون، يتم فيها تحضير الطلاب المأخوذين بالشروحات الكلامية، ومن ألمعهم ـ في الشوق والبروز ـ الفتى جعفر: طالعاً من أفق جده الإمام زين العابدين، مغموراً غمراً لجوجاً بألف حوملة وحوملة من الشروحات اللسانية الحافرة في كنهه حفر الدواوين.

سيكون لنا أن نرى الفتى جعفر ـ وعمره الآن ينوف عن عشر ـ يتناول الشروحات من شفتي أبيه الباقر، يوسع بها شروحات جده العابر. . . بعد عشر سنوات ـ إذا جاز لنا التسبيق ـ يكون لنا ـ أيضاً ـ أن نصغي إلى شروحات جديدة ومستطيلة، يبدأ بها أستاذ جديد اسمه: الإمام جعفر الصادق. يتمنى فيها ـ للجامعة ـ أقلاماً مبرية، تعتمد التسجيل والتدوين، حتى تنزل المعلومات اليقينية مرسخة في القراطيس، فيخف عن الشفاه لغط طويل، وهو يبحث عن ضوء وهو ذاته ـ هذا الضوء ـ قد أصبح مشعاً في تقرير.



- ٣ -
اللدنية

واللدنية؟ هل هي غير كلمة «لدن»؟ ومعناها [من عند]، وتفسيرها الوحيد المطلق هو: [من عند الله]، أو [من وحي الله] أو بشكل أيسر: [من حقيقة الإلهام].

أجل! وأي شيء في الوجود المطلق، ليس من عند الله بشكل مطلق؟ أما إذا حذفنا الله من روعة المطلق... فأي مطلق سواه يحل في محله المطلق؟!

وتبقى اللدنية - في مطلق الحال - نعمة إلهيّة هابطة من مصدر علوي، ونسبة - أيضاً - تتزيَّن بها المواهب والمزايا في وجودية الإنسان، على أن تضبطها قنوات يخططها العلم، ويعينها الإكتساب... وهذا هو كله في لموع المواهب المميزة بها شخصية الفتى جعفر.

من هنا أن المواهب - بذاتها - هي اللدنية، ولكن العلوم والمعارف، إنما هي لدنيات من صنف ملحق، لا تحوزها إلا المواهب، ولكن... عن طريق القنوات التي يحفرها جهد الاكتساب.

والاكتساب؟ - ولو لم نجرده من لدنياته - إنه خبرات تعيِّنها التجارب في جميع الحقول الحياتية من وجود الإنسان، ليصير معرفة، ثم علماً، ثم

تقريراً علمياً يحقق فيه التدوين، وينقله إلى حقيقة التثبيت، وقابليات التطور... وهكذا الشروحات الكلامية؛ ـ ولو لم نجردها من مضامينها العلمية ـ تبقى ألهية طويلة، إلى أن تحصرها المواهب الذكية في قنوات التدوين التي تثبتها في حقيقة التقرير.

وسيبدأ التطور متجهاً مع إمامة جعفر لأن يعتمد التدوين مركّزاً في النصوص المكتوبة، إلى أن تتناولها حروف المطابع. ستكون النصوص كتابة مقروءة، تختصر فيها الشروحات الكلامية، لأنها تكون خلاصة تقرير مدعوم بتسجيل يثبته فكراً، ويحفظه من النسيان. وسيكون لنا أن نسمع الإمام يقول: «اكتبوا، فإنكم لا تحفظون حتى تكتبوا»، ونسمعه يطلب من تلميذه جابر بن حيان أن يوجد له قرطاساً لا يحترق، وكان له ما طلب... وسيشتهر من تلاميذه المفضَّل بن عمر، الذي سيُملي عليه الإمام مواد كتابه الشهير «توحيد المفضَّل» ليكون للأمة وقتذاك. كتاب مدون في البحوث الطبية، يتناول وظائف الأعضاء، ودورات الدورة الدموية، والجراثيم، وتشريح الإنسان...

وهكذا ابتدأ التدوين يخفف من الشروحات الكلامية التي هي حومان حول المواضيع النائمة في العناوين، لينصرف البحث إلى كشوفات أخرى ينوي ضبطها التدوين في نصوص تحفظها من الضياع.

واشتد الإمام ـ فيما بعد ـ إلى تخليص جهوده العلمية من نعتها باللدنية ـ بالذات ـ لا لأن اللدنية ليست من محض عرفانه، بل لأن القول فيها بهذا الشكل، يخفف من قيمة الجهد نفسه، مبعداً عن الروح عزمها الإنساني في التفتيش والتنقيب عن حقيقة العلم النائمة في محارات التجارب، ولن يفتقها من مخابئها إلا محض الاختبار، وعندئذ، فإن التحقيق في كنه العلوم ـ ولو غوصاً في بحار العناء ـ هو الصائن العزم في مجتمع الإنسان، والمرهف المواهب الحياتية فيه، والتي هي ـ وحدها ـ لدنيته المثلى في شمولها العميم.

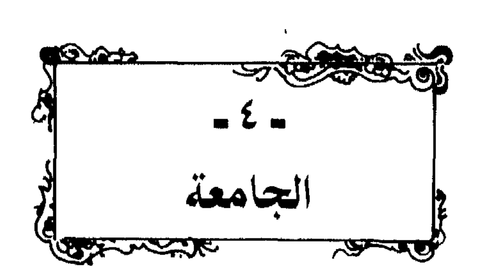
وسيكون لنا أن نرى الإمام منصرفاً إلى حقيقة التدوين، وضبط الفكر في أنباض الحروف، وضمن دفَّات النصوص، حفظاً من الضياع، ومن هدر الكلام. . . وسنراه ـ أيضاً ـ يحاول الانتقال من لدنية معصومة، بالله ـ عز شأنه ـ وهي له ـ بالتمام ـ ظاهرة العيان والبيان. . . إلى تمجيد الإنسان بمواهبه الخلاقة، والمحتاجة ـ أبداً ـ إلى علم إنساني لا يجلوه إلا التكسب بالاختبار!

ولم يكن الاختبار غير متاح لدى الإمام، فهو مفتوح أمام عينيه، وموفور في أي مكان، ولا ينقصه: لا عزم الروح؛ ولا ألمعية المواهب، فالإنسان موجود بين يديه: صحيحاً، أو كسيحاً، أو مريضاً، أو حياً، أو ميتاً، أو ذكياً، أو ذا غباء. . . فلماذا لا يتناوله ـ بجميع شؤونه وحالاته: الدرس، والكشف، والتشريح، والتطبيب، والمعالجات بكل ما أوتي العصر، وبكل ما أوتي هو ـ بالذات ـ من علم واكتساب. . . وهو المطلوب منه ـ بتخصيص مشدد عليه ومعين ـ بأن يكون في المجتمع: عين علم، وعين فهم، وعين قصد في رفع مستوى الأمة إلى غد بهي منتظر. . . وكانت له ـ في مجال التحقيق ـ لدنية باهرة، ما اختصه إلا بها المقيمون، ولا تلبسها ـ مثله ـ تقريظاً ـ إلا الملهمون ـ!

ولجَّ به الاختبار إلى تحقيق مرتجى: وألَّف في الطب ـ كما سنرى ـ وأحصى قضبان العظام في جسد الإنسان، وأحصى عليه خفق أنفاسه، ودرس الأرض في كل زراعاتها، وفي كل فيوض أملاحها، وراح يصف لهذا الإنسان: ما يأكله حتى يطيب على كل داء، أو ينتصر، ويمنعه عن كل ملح يهدد أمعاءه بالاهتراء، ويحبِّب إليه فتح نوافذ بيته حتى يمتلىء بالهواء، وأن ينظفه بكل مكنسة تطرد الجراثيم من الاختباء. . . وعلمه: كيف ينام، وكيف ينهض من منام. . . وكيف يتناسل في طهر النسل، وكيف لا يلجأ إليه في حالات العياء!!!

إنها كلها إنتاجات واضحة التعيين والتوجيه، ستقوم بها تخصصية

منتدبة لأن تكون خطاً جديداً فاعلاً في إحاطة الأمة بما يركزها في سوية حياتية ناهدة إلى نمو وتطور، كما وأنها كلها بدايات ـ أيضاً ـ نتطلب تنظيماً وتنسيقاً ينقلانها إلى تقنية يثبتها العلم، ويحفظها تدوين تنتهج به الجامعة .



- ٤ -
الجامعة

والجامعة؟ لقد كان الإمام في يثرب يحمل حفيده جعفر إليها كل يوم: ساعة، ثم ساعتين، ثم ثلاث ساعات على مدى تسع سنوات من عمره الطري الأول، أما بقية الساعات من ردح النهار، فهي المخطوفة إلى بستان النخيل، حيث كانت ترتزم ـ من يوم إلى يوم ـ في ثوانيها، كما كانت ترتزم ـ في مهل الوقت ـ حبات البُسر في الأقراط المتدلاة في البستان من أعباب النخيل...

يا لجده الإمام زين العابدين، كيف كان يرصف في جنان حفيده نجوماً ونجوماً من تلك الثريات المولعة بها تلك القبب!!! لقد رأيناها ـ تلك النجوم ـ من دون أن نحصيها ـ نجمة نجمة أو شعاعاً شعاعاً ـ نازلة في فضائها النفسي الجديد، وأدركنا أنها لمعان ـ وسيّان أكان آتياً من هنا، أو من بعيد ـ لا ليمتلىء بها جبين، وسريرة، وحدقة، بل لأن يفيض بها: لسان، وشفة، ومهجة... فالأمة التي هي أمة محمد، هي التي نُزِّلت لها السور في حبيبات الآيات، وهي المحتاجة إلى تفتيق يوزِّع البُسر في شمعات تستنير بها الزوايا المعتمة!!!

ويا للجد العظيم الإمام زين العابدين، لا يمل تكراراً حزيناً، يذكِّر الأمة بحنين لا يجوز أن يموت من أمانيها!!! فإذا خاب بها الرصف في

جوهرة الأمس التي كانت أكبر ماسة في روعة العقد، فليس أن الجوهرة خسرت نصاعة تجوهرت بعلي، بل لأن العين التي حدَّقت بعلي، لمحته مُنعلاً، ولم تتحسسه مِشعلاً، فخطفت نعله، وبقي الحق في دوحة المشعل!!!

ولم ييأس زين العابدين من التكرار المجدد، وإن خاب به ـ قبل أبيه ـ الإمام الحسن، وتجرعه مجعداً في السم!!! ولم ييأس منه ـ حتى ـ وإن تضرج به الإمام الحسين عطشاً في الكوفة، محرقاً أحمر. . ولما تطفئه بعد دموع الإمام الحمراء!!! وها هو ـ في المربع المخمس بابنه الباقر، والمسدس بحفيده جعفر ـ يربط الأيام الضائعة من عمليات الحساب، بيوم جديد تتلملم إليه أرقام صحيحة، تتشدد بها عمليات الحساب!!! وهكذا التكرار، لم يقطعه اليأس عن محاولة هي المؤمنة بحقيقة الأمة المفتشة ـ أبداً ـ عما يصلها بحقيقة باهرة وعدها نبيها بها ورحل، ولن يعود إليها نبيها الحبيب المربوط بها ربطة السوار بالمعصم، قبل أن تناديه ـ هي ـ بأنها وجدت حقاً ناداه إليها، يرفعها هداية بين العالمين؟

ذلك ما كان جوهر الترسيخ الذي شدد به الإمام زين العابدين عزم ابنه الإمام الباقر: بأن يتخلى عن كل شيء يختص بالأمة، ليس مجرد علم يهذبها، ويوضح لها جميع الخطوط في مسالكها الحياتية الصادقة، إيماناً منه ـ لا يتزعزع ـ بأن العلم الصحيح، ساعة تغرف منه الأمة مقاديرها المشرعة بالحق، والفهم، والجمال، يشرئب بها ـ بالمقابل ـ عزم مولع بالعدل، والوعي، والكمال؛ وتلك هي الأمنية التي كانت مرتبطة التنفيذ بجبين الإمام علي، ارتباط الزهر بمعاقد الثمر، أو كارتياد البسر نضجه الأحمر!

وكذلك لم يكن ولوع الإمام زين العابدين بحفيده جعفر، أقل من وقوف خاشع تجاه دفقات من المواهب، كانت تبشِّر ـ بفيضها ـ سريرة الفتى، مثلما تبشر ـ بضوعها ـ باقات الزنابق، وهكذا راح إليه ـ على مدى

ما بقي له من العمر ـ يمده بكل ما يوضح له اجتياز الخطوط: من علم، وتاريخ، ومعلومات، ومقاصد، مشدداً ـ بنوع مميز ـ على أمة جده النبي التي هي رصيده في البلوغ والتحقيق، ولن يكون لهذه الأمة العظيمة بلوغ وتحقيق، ما لم يُغطِّ معالمها المقهورة، علم منير، وقصد خمير: العلم وحده يجلو لها كل الخطوط، والقصد السليم هو في حاجة طحينها إلى خمير!

وهكذا شدد الجد على حفيده الإمام الصغير المنتظر، تشديداً فيه كل ألوان السجود، بأن يستمر بترسيخ رسالة علمية يتحمل القيام بأعبائها أبوه الباقر، وعليه أن يوضحها ويركزها على أوتادها، بصبر طويل تحتاجه الأمة القاصرة، حتى تستعيد ما خسرته في ضياع الطريق، وحتى يكون لها ـ في غد ـ تعويض مماثل، يرغبها في استمرار بطولي، تشعر ـ هي بالذات ـ أن فيه المنال المرتجى، والظفر الأكيد!!!

وتبقى المقاصد ـ في شفراتها المسنونة ـ منطلقاً مكنوناً في عبٍّ نهج أساسي واحد وواضح، لا تحيد به الجامعة قيد أنملة عن خطها المرسوم والمعلن، وهو بأنها للعلم ـ وحده ـ كل العلم، بجميع مواده المتفرعة منه، والداخلة فيه، والواردة إليه من أي مصدر كان، وبأنها ليست لتطمع بأي أمر «سياسي» هو اختصاص آخر يتفرد به رجال الحكم. . .

أما رجال الحكم، فإنهم اكتفوا ـ من الإعلان ـ بما ارتضاه الإمام بالتخلي عن حكم كان يطالب به، وهو يتنازل عنه بالتمام!

هل صدق الحكم أن الإمامة تنازلت عنه لأنه أمر سياسي، وليس مادة علمية كالفيزياء والكيمياء والحساب!!! ولكن الجامعة تعرف أن السياسة فن خطير، ولن تتقنه إلا المعارف كلها، وهي المصفاة من كل العلوم. . . إن العلوم جميعها: من كتابة وقراءة ورسم، ومن حساب وجبر وهندسة، ومن فيزياء وكيمياء ومعادلات، ومن تاريخ وخرائط واجتماع، ومن أدب وفقه وفلسفة، ومن زراعة وصناعة وإقتصاد، ومن تأليف

وتسجيل وتدوين. . ومن كل ما هو مرسوم ومحقق وغير محقق. . . إنها كلها في المادة الوحيدة المنتجة فن السياسة في أمة مطلوبة ومستدعاة لأن تكون منارة، وهدياً، ومثالاً.

لقد فات هذه الأمة المثالية رصف كان لها في البدء موصوفاً ومنضوداً. . . وجاءتها الخسارات، والدموع، والأحزان. وكل حاشيات التنافر الآخر!!! وها هو الإمام زين العابدين يرتب الرصف الجديد في جامعة، تأخذ العلم من كل حواشيه التفتيشية، فالإبتدائية، فالتوسعية، فالتحديدية، فالتركيزية، فالتكاملية المتوصلة ـ من جيل إلى جيل ـ إلى التنامي بتحقيق أمة، ينقلها فن السياسة إلى المجال المنتظر.

تلك هي المحاولة الفذة الثانية بعد الأولى التي نُحرت في مهدها الأخضر. . . إلا أنها بقيت في سرها المكتوم، تفتش عن قواريرها المختومة، ليزيل ختمها حزن مارد يبكي، اسمه زين العابدين، وها هو يرتب صنوف المحاولة، بتوسيع بوابات الجامعة، وبتجهيزها ـ كما رأينا ـ بكل مادة علمية فتَّش عنها في الجوار ابنه الإمام الباقر، وراح إلى درسها، وفك رموزها، وشرحها على الطلاب.

والحقيقة أن زين العابدين كان المارد الطالع من حزنه الأكبر، إلى تصميم صامت أخرس، ما أراد أن يعلنه بالقول، ولا بأي من أنواع الكلام، بل بالنتائج العظيمة المتوخاة، والمرتبطة بها كل روعات المرام، وكل معاقد الأحلام. . . فالجامعة التي أعاد فتحها بقصد جديد، وبحجم متزايد ـ مع مآتي الغد ـ على أي من الأحجام، هي دليل باهر إلى طموح عبقري كان ينام بين طيات ضلوعه، ليغلف به ـ بعد خمسمئة سنة، أو ربما أبعد ـ هامة أمة لا تزال هاجعة في أشواق النبي الذي رحل، ولما نزل أشواقه في قمقمها المختوم!

وأشواق زين العابدين ـ وهي أشواق النبي في صدره المقفل ـ لم

يكن ليعلنها، بل ليشير إليها بالإصبع المخفي، تماماً كما كان النبي العظيم يدل إليها بإشارة مطوية ضمن إشارة أخرى موجهة إلى صدر علي. . . حتى إذا ما طالت علياً خيبة مرة، استمرت لاعجة الشوق التي هي دائماً تحياه منتظرة علياً آخر، تنغرز فيه لتحيا!!!

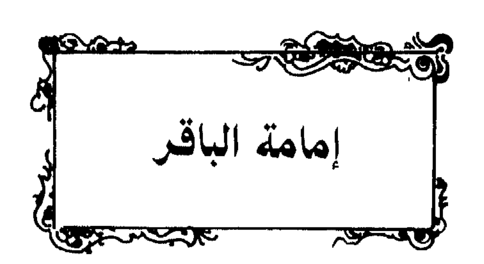
واعتبر الإمام زين العابدين ـ في سره المقفل، أو في شوقه الدفين ـ أن ابنه الباقر هو استمرار العلي الآخر، يتناول إعداد الأمة بما يجهزها لنمو فاعل، لا يتم ـ طبعاً وحتماً ـ إلا في دورات متعاقبة مع تعاقب دورات السنين، لأن العلم يحتاج إلى كشف مبين، وهو المخبأ في مدارجه التي هي ثقافات حية، تحققها الاختبارات، والمعالجات الحية، بصدق هو أنبل ما تتعلق به الأمم في طالعها الأمين!

إنه الإنتظار الراقد في إيمان زين العابدين، لا بل في قرارات ظنونه الغارقة في بحور من التخيلات المختنقة بحدود الأحلام. . . وهكذا فإن الإمام سيترك الانتظار في قرارات نفسه مرهوناً بتعهدات الأيام، على أن لا يشير إليه إلا بلمسات من الوعد المرتجف من تلاحق الصدمات ـ كما لاحظنا ذلك صادراً عنه في نهاية المقطوعات الواردة في موضوع [السنوات التسع]. . . ومعنى ذلك أن الإمام زين العابدين رسَّخ الجامعة: فعلاً حياً، متمادياً بتحقيق حي، ينميه العلم الحي المنتصر بوعي الأمة المرتبطة بالأشواق المتنقلة بها من صنمية عبدة إلى حرية أخرى هي عصمة الإنسان بالشوق الفريد!

اثنان حتى الآن، كانا في عصمة الإمام، يركز عليهما مآتي الجامعة، لقد كانت الإشارات منه واضحة في عملية التمتين، من دون أن يكون للعلم باب إلا ويطرق. . . أما الغايات، فإنها هي التي تحدد ذاتياتها في كل وصول يتحقق به الأمل المنتظر. . . أما المنتظر، فهو العظيم الوافد من جدية التحقيق الذي ما زال خيالاً أو شبه حلم، ولن تعلن عنه إلا الأمة بعد أن يتملكها التحقيق. . . أما السياسة؟ فليطمئن بال الحاكم بأنها له،

وعندما يصير هولها ـ بمآلها الضمني ـ فتلك هي أحجية أخرى، سيزدري بها الوعي الجديد. . .

إن ذلك كله لم ينله الشرح المطول، بل اللحظ المخوَّل. . . إن الشوق والتعرف كانا يبوحان به، من دون أن ينشر، بل ـ أيضاً ـ حتى يُستر، لئلا يضر به النشر، فيصدمه البؤس فيتعسر!!! أما الاثنان: الباقر وجعفر ـ فإنهما الملفوفان في واحد، إنه الإمام الباقر.



إمامة الباقر

والإمام الباقر؟ وإن يكن الآن هو المتسلم إمامة تخلى عنها أبوه الإمام زين العابدين ورحل إلى فضائه الأوسع، فإن الإمامة هذه لم يتسلمها الإمام الباقر بأي نوع من أنواع التبادل والتناقل، بل بشكل من أشكال التداخل والتواصل، لأن العبقرية الفذة التي شدَّت لها خيطان الفتائل، إنما هي التي أرادتها من صنف الملاحم: يتمم بعضها الصغير كل أبعاضها الأخرى، ليكون لها من حلقات الإلتحام اندماج منيع المدى في وحدة مصنفة الإلتزام، ومدرَّجة المراقي، وهكذا تنرص الأهرامات في وحداتها المدماكية المتساندة فوق المساحات، وتحت المسافات، والمتنامية إلى نقطة صغيرة تدغمها بفضاء السموات. . . .

أجل، إنه الإمام زين العابدين: صاغ إمامته الأنموذجية، بعد أن ضمخها بذراعيه، ولفها إلى صدره، وسقاها ذوب قلبه وكل شلالات عينيه، وها هي خارجة من عبه: إمامة يدل إليها، ويصرح عنها: هدف واحد، وأداء واحد، وإخراج واحد. . . إنها ـ فقط ـ لأن تكون علمية، جامعية، توحيدية، تثقيفية، انفتاحية على كل المدارج الفكرية، العقلية، الروحية، الإجتماعية، على قبول منها ـ صريح وصادق ـ يبعدها عن كل تدخل سياسي يبقى مختصاً برجال حكم يديرون شؤون الأمة ويرتبون مواعينها.

لم يكن تنحي الإمام عن السياسة ـ كما علمنا وتفهمنا ـ إلا احترازاً

منها مع مولّهين بها، يعتبرونها صدارة لقوم، ومكسباً لجاه، وتزعماً لسلطان، فوق ما هي بوابة لثراء موسع بقصور تفحش فيها صنوف التذليل، والتشهي، والاستعباد... ولقد استهجنها ـ بشكل مريع ـ وبعد خلو الساحة من النبي الكريم، أداة فتك بأهله الطالبيين، يكل إليهم الرسول رعاية أمة ستبلغ بها الرسالة إلى شأو منير، وها هي السياسة هذه، ليس لها من هدف مرجو إلا تحطيم الفئة المخصصة بالإمامة، والتربع في محارمها، وتجريدها من مكارمها... وها هو ـ فعلاً ـ عليُّها الحائك الأول، تحذفه من نسيج الأمة تلك التي تدعي أن لها الخيط، والمكوك، والمغزل!!!

لهفي على جدي علي، يقول الإمام زين العابدين: تسطو عليه جريمة النكران بالنصلة البلهاء! ولهفي على عمي الحسن، تسقيه السم تلك العاهرة السفاكة الشنعاء! ويا نكدي ونكد الدنيا على أبي الحسين، تمرغ الأرض بالفسق والجور، وتسقيها شآبيب دمه، تلك الفاجرة النازلة لطخة على جبين عاشوراء!!!

ويسكت به فرط التأسي، ويكممه التصبر على ضيم هو أثقل ما ترخيه على صدر حجر الرحى، ويناديه ـ من خلف هاتيك الموشحات المغلفات بالحنين الهازج بالغمام ـ صوت بكر، كأنه حفيف صنج على صنج، أو احتكاك حرف بحرف ستولد منه شرارة!

ويستبد به خشوع الذات، ويدرك أن الصوت هو صوت جده الرسول الذي كان يحك حرفاً بحرف ويستولد نوراً وآية...

ويغرق في الإصغاء، ولا يعتم أن يعلم، أن جده يوحي إليه بذات الوحي الذي أوحاه إلى جابر الأنصاري بأن من صلبه يأتي من يبقر العلم، ويحضر للأمة ما ينجيها من جهل يعتم عليها الدروب!!!

وهكذا كان عليه أن يصدق كل الملامح الموحيات، وأن يهرع إلى اسم يغدقه على ابنه نجي الرسول، فإذا هو «الباقر»، وأن يمده بجلوة،

موجهة الإحراز، والاكتساب، والألوان، ليكون له من العلم الذي سيحدثه وينثره ثراء على الأمة، ما ينجي الأمة من غباوات ترشقها بها طغمة الحكام: تعسفاً، وتذليلاً، وقتل مواهب!!! فالعلم ـ وحده ـ ينير الدروب، ويشحن النفوس بالإباء الرافض.

* * *

وابتعد الإمام عن التعلق بسياسة يستميت بالحصول عليها مجرمون أغبياء، ولن تكون لهم إلا بتحطيم من هم لها: جدارة، وحقاً، وولاء! ولن تسلم الجدارة بمنعة ذاتها، وكذلك الحق سيبقى مهيض الجناح وهو مكمَّم أعزل! أما الولاء؟ فمن يخلصه من ناب ذئب؟ وهو في حظيرة الحملان!!!

وانتفض الإمام ـ وهو يستجيب إلى هزج آخر ـ وتوجه نحو باب مخدعه، فتحه وهو ينادي:

ـ أين أنت يا باقر؟

وكان الباقر بين يديه هو الماثل، فقال له:

ـ إني في تمام الأهبة يا سيدي.
سددني بعينيك الطالعتين من هيضة الدمع..

فأجابه الإمام بجبروت جديد:

ـ صدقت يا بني، لقد اكتفى من جلوتي الدمع... اسمع: لا تترك بقعة من بقاع الأرض، فيها علم، أو فرع من علم، أو خبر عن علم... إلا وتجيء به، أكان في مكة، أو في حضرموت، أو في الكوفة وكل أرجاء العراق، أو في الشام، أو في فلسطين، أو في جبيل، أو حتى في الصين والهند وحواشي جنديسابور، حيث لك أخوال تربطك بهم جدتك العظيمة شاهزنان...
وعندما ترجع، وفي جعبتك مثل هذه الثروات، تجدني قد وسعت

لك في يثرب، مدينة جديك النبي وعلي، جامعة تستقبلك وتتسع لكل ما حوشت من كنوز. . . وحدها الأمة في انتظارك تفتح لها فتحاً جديداً، يوصلها إلى غد كبير يستنير بالعلم، وبحقيقة الفهم، وكل أطياب الجنى المحقق حضارات الشعوب!!!

* * *

أظن محمداً الباقر [أبوه الإمام زين العابدين، وأمه فاطمة بنت الإمام الحسن] كان في الواحدة أو الثانية والعشرين من عمره، عندما قام برحلته التفتيشية عن المواد العلمية التي كانت حضارة المنطقة المشرقية العربية برمتها، قبل أن يزول بها الزمان منذ آلاف السنين.

وأظن أيضاً أن ابنه جعفر [المكنى بالصادق، وأمه أم فروة بنت القاسم] كان في الثانية من عمره عندما قام أبوه الباقر برحلة التفتيش، تلبية لرغبة أبيه الإمام زين العابدين وقد رأى أن الأمة التي أغدق عليها كل العزم نبي المسلمين، سيخنقها الجهل، وهو يمتص أنباض الشوق في أوصالها، ليرميها عقماً فوق ممرات الدروب!!!

لقد كانت لهذه الأمة ازدهارات السنين: لبتها وهي تقطع بها ممرات الحقب، لبتها في بابل مدينة الأبراج العالية في العصور الخالية، ولبتها مع بني شنعار وبني كنعان في رص الحروف الناطقة، وتنجيد السفينة، وبرية المجذاف - ولبتها في هندسة الأنهار وتخليصها من وطآت الطمي وروغات الوحول: أكان في امتدادات النيل فوق سهول مصر، أو من قبل ذلك بألف سنة، في تخليص نهري دجلة والفرات من طميهما العارم، أو في تهذيب مصبات الأردن بين يدي يوحنا المعمدان. . .

وكان لها في بعلبك وفي معابر جبيل على شواطىء لبنان: أعمدة، ورصف مداميك، وحفر، ورسم، وإعلاء قناطر. . . وكان لها - هنا وهناك وهنالك - قصور باهرات، وأفياء حدائق في الفضاء معلقات. . . وكانت لهما: هندسات، واستنباطات، وطبابات، وتحنيطات. . . وكانت لها:

علوم، وفلسفات، وفيزيائيات، وكيميائيات، ومعادلات، وكشوفات، وأهرامات، وجغرافيات. . أدهشت العالمين: القديم والحديث، وركزت الحضارات على مثالياتها المحتذاة. . .

ثم دالت بها الأيام إلى زوغان حَرون، حرفها عن انضباط الدائرة، فانحدرت رويداً رويداً إلى دوار كثيف، أنساها حقيقة الذات، وحقيقة التلمس. . . وها هي في فراغ كئيب، تفتش ـ مع محمدها الباقر ـ عن كل حصاة كانت تستند عليها حجارات المداميك التي كانت تشد بها قلاعها، وأبراجها، وقصورها التي ما بقي منها إلا أثر بعد عين، والتي أنشأتها، ونست أنها أنشأتها، ومتى أنشأتها؟!! فيا ويح أمة ما أتعسها: تعرف أنها كانت في سماك، من دون أن تفكر كيف تعود وتستدعيه إليها!!!

وعاد محمد الباقر من رحلته السماكية: وفي جعبته ـ فقط ـ عناوين لمواد علمية في شذرات تحتاج إلى كثير من جهد وتصويب يجمعانها إلى واقع التفصيل، وأبجدية التنقيح، واجتماعيات المنال!!! أما ابنه جعفر ـ وقد تركه في حبوة السنتين ـ فقد وجده في رجولة مستعجلة، لا تريد أن تعترف بأنها في أربع من العمر، بل في دوحة من فهم تستعصي على أي ذكي بالغ عشر سنين: ولم يستغرب ذلك نجي الرسول، فرنة صوت جابر الأنصاري لا تزال تملأ شغاف روحه بالشوق الكبير إلى جني كل علم تتسدد به الأمة في تدرجها النامي إلى سلامة التحقيق! وإن الوعد الكبير هو ذاته في كل الملامح البادية في جبين ابنه جعفر، تحمل إليه نباهة في الذهن، وفي اللب، تمحضه بلدنية روحية خلابة، تصدق بها النعمة في تفجير المواهب التي تحتاج إليها بنية أي مجتمع إنساني يتوق إلى تحقيق: وفوق ذلك، فإن الكسب قد زادته العناية الجلى خصباً ولموعاً، بين يدي إمام تلفلف بزين العابدين، وتعاطف بابنه وأسماه الباقر، ليتكامل بحفيده ويلقبه بالصادق، بعد أن تعهده ـ كما تعهد أباه ـ بتوجيه مزين، يشد به إلى تخصّة في التأنق والبروز!!!

لقد تبطن صدر الإمام ـ وكلنا نعلم ـ بحزن عميق ونبيل ـ نهد به إلى تحقيق أصيل سيكون بتحضير الأمة تحضيراً علمياً حثيثاً، ينقلها رويداً رويداً إلى نضيح لذيذ ما تذوقت طعمه إلا منذ آلاف السنين.

* * *

وانتقل الإمام إلى رحبته الأخرى، بعد أن ترك في رحبة الدار ضلعين من صدره لا ينفكان ملتحمين به في روحية منوعة التنامي، والتداخل، والتكامل. إلى أن ينتهي الدهر من دون أن ينتهي هذا التفاعل والتواصل، لأن الجامعة العلمية هذه، إنما هي ارتباط وثيق معين، بنهج وثيق معين، قام بها الإمام زين العابدين مجمعة من حزنه الوسيع على أبيه الحسين، لا يمرغه بالذل والوحل رجل من بني حرب ـ اسمه يزيد ـ ولا تقطع رأسه وترقص به جريمة سفيانية لا تتمسح بمثلها حتى فصيلة من فصائل القرود!!! إنما الذي غاص في مثل هذه الشناعات، هي الأمة بالذات: لم يرشدها فهم إلى حق فتعتصم به وتدافع عنه، أو إلى زور فتتأباه وترفضه يرقص تحت عينيها!!!

بهذا النوع الجليل من الإدراك تبصر الإمام بالواقع المؤلم، تعاني منه الأمة ما يذيقها طعم الفجيعة! ولقد فجعت ـ فعلاً ـ بنبيها الكريم يقدم لها بسط الفهم، وكل أنواع البذل، ثم يتركها معكزاً على أمل، ولما يتحقق!!! وكذلك عليُّها الآخر ـ مع الحسن والحسين ـ لفَّهم جميعاً قهر وضنى، وتركوا الميدان ودماؤهم من أوردتها تسيل وتتفجر!!!

وأخيراً؟ أليس لليل صبح؟ وللبلوى نجوى؟ وللتأني مدَّخر؟؟؟ وصح للإمام تعيين الإثم الكامن في ضمير الأغبياء!!! ولن تستأصله من قعور العتمات إلا قبسات مبثوثة في الحنوات تستضيء بها الخلايا!!

وهكذا ستتجمع: شمعة شمعة موارد النور، وتمتلىء بها عين الأمة فترى دروبها التي توجهها المفارق إلى الواحات الكبيرة حيث تعود الأمة

وتبني فوقها عماراتها المشرقة بعزٍّ آخر، وكرامة أخرى، يُنسيانها آلام الذل، وعكر الجهل، ويعيدان إليها ـ نبياً منها ـ هو الباقي لها، بين كل حرف وحرف من دوحة القرآن، ويرجعان أيضاً إليها مجموعة التصاميم المغزولة باسم علي، وقد خنقوه بها، لأنهم لم يكشفوها خطأً وحرزاً!!!
أما الحسين ـ ساعة تلك ـ فالأمة تستعيده إليها رمزاً من الرموز المستنيرة، لا تموت بها البطولات فوق الحفافي الترابية، بل ترتفع بها إلى المحفّات السنية المروية بالإباء الباني الأمم بالمجد والعز والمكرمات!

جليٌّ أن الإمام زين العابدين اتهم الأمة كلها بنقص فاضح في الوعي والإدراك، مما يجعلها مستهدفة لكثير من الويلات والعاهات، سيضربها الجهل بها ويرميها في فقر روحي ومادي، على تماد في انحطاط لا ينجيها منه إلا نور جديد ملهم، ينبزغ عليها ـ كردة فعل ـ من المكمن ذاته الذي انطفأت فيه شموع ولم يسمح لها أن تضيء!!!

وعزم الإمام وقرر أن يتناول كل شمعة بمفردها، ويمسح الوخم عن ذبالتها، وينفخ إليها شهوة النور... ورويداً رويدا ـ مع طالع الأيام وكرات المجاهيد ـ تترابط المشاعل بخفقان التواصل، وتتنعم الأمة بأنوار تضيء دروبها الممشية، حتى إذا ما هبت عليها كدرة تطفىء شمعة، أحرقت الكدرة بقبضة من نور، وهي تقول للنور: أنت شمس الله في ليل الكدر!!!

* * *

كأني بهذا المقطع الصغير الذي مررنا به منذ هنيهة، هو كل خلاصة التصميم الذي عزم الإمام زين العابدين ـ بعد درس طويل ـ على تنفيذه بصمت وتؤدة، من دون أن يعلن عنه بالكلام والشرح: ما هو هذا العزم، وما هي مداليله ومواصفاته، وما هي أبعاده ومراميه وتفاصيل غاياته وأهدافه؟.. وفقط بدأ العمل في وضوحه الجلي، معلناً عن ذاته الصريحة، والبريئة، والصادقة، والصراحة والبراءة والصدق، هي

المواهب الكريمة التي تقدَّم بها في حقيقة العمل المدرج، من دون أن تحتاج إلى لسان يفصح عن ماهياتها المطوية فيها.

ولكن القصد الكبير المطوي فيها، هو في النطفة النائمة في دنيا الخلية المقدسة التي سيخرجها الشوق من عتمة السر المكنون في علبة النجوى، إلى اليوم البكر السابح في معالم النور!!! أقول ذلك، وأنا أعرف أن القول بحاجة إلى إفهام حتى يتخلص من الإبهام:

كلنا نعلم أن علياً الصغير ـ ابن الحسين من الأميرة الفارسية شهزنان التي وضعت ابنها البكر وهي في سكرات الموت على فراش الوضع العسير ـ كان مطروحاً، مريضاً بإسهال عنيف، في المخيم المنكوب في كربلاء، وقد ضرب الحصار عليه جيش يزيد لمدة عشرة أيام... إن علياً هذا، وكان في الثالثة والعشرين من عمره المقهور، قد شاهد بأم عينه تقويض المخيم، وتمزيق جسد أبيه الحسين تحت زخات السهام... وهو الشهيد الأثبت والأوفى، والذي أبى أن يرضخ لحكم ظالم فاسد، وجاهل متعسف، فسَّخ الأمة التي جاء نبيها لينقذها من جاهليتها العمياء، ويبنيها حقاً جديداً، يصلها بماضيها العظيم الذي كانت فيه جميلة، وبهية، وسخية!!!

تلك هي المعاناة التي تحمل ابن الحسين وطأتها الفادحة، فانصبت في ذاكرته، وكل وجوده الذاتي، تجسيداً لمأساة ـ أحيت أباه في خلده مثالاً لعظمة لا يجوز لها إلا أن تعيش، وتتكامل، وتحقق انتصاراً، وخلوداً لأمة هي شوق النبي!!!

لقد رأيناه ـ هذا العلي الصغير ـ يبكي غزيراً، ويصلي طويلاً، ويسجد ركوعاً مديداً!!! فعلى من كان البكاء؟ ولأي مبتغى كان السجود، وكانت الصلوات؟!! صحيح، كان البكاء على أبيه الحبيب المخزَّق والممزَّق!!! ولولا الحقيقة الكبيرة، والعظيمة، والجليلة التي آمن بها، وانضوى إليها بعشق والتزام، لما تخزق أو تمزق!!!

إذاً ـ فحزن الفتى على أبيه هو الحزن المثنى: واحد صغير لا بد أن يتراخى، وأن يذوب إلى تبصر مذعن... وآخر هو الكبير المتمادي إلى عنفوان لا يرضى إلا أن يحقق ذاته، وهو ـ في مجاله ـ هدف رآه النبي وأنزله في سور خالدة: تعشقها العظيم علي، وحفرها على صدر ابنه الحسين يبني بها ثورته الأبية المرتبطة بتذكير الأمة بأن لها حقاً عظيماً لا يجوز أن يستهان به فيهدر!!!

النبي، وعلي، والحسن، والحسين... هم الآن أربعة في واحد، وهذا الواحد هو الأمة... والبكاء عليهم ـ تخسرهم الأمة ـ هو الحزن الصغير المنطوي في الحزن الكبير المصلي من أجل تحقيق الأمة في بلوغ أهدافها المرجوة!!!

والأهداف المرجوة ستتحقق ارتباطاً بتصميم نهضوي يقوم به خط إمامي مدرب بتوجيه خلقي ـ روحي ـ مركّز على حق وعلم نابتين من مصلحة الأمة المنشودة... والتصميم النهضوي ـ إذاً ـ هو الهدف الكبير الذي تبذل النفوس العزيزة والأبية من أجل تحقيقه... والأمة العظيمة هي ذاتية الهدف الذي استنزل له النبي الكريم ـ من العلياء ـ حروف بنوده، لأن الأمة ـ فوق رحاب الأرض ـ هي حرمة ومنعة الإنسان الّذي هو نسمة الله الشريفة، وسره الأمجد!!!

ألا فلتبن الأمة بالحق والخير والمعروف، حتى يتم لها الانتساب الأمجد إلى الإنسانية العذراء التي هي وجه الله في النبل والكرامة... وما لم تبن كل أمة في مثل هذا الانسياق، فهي في عجموية حيوانية، نصيبها ذل، وحيف من هوان، تأباهما حقيقة الإنسان!

لما انتهى ابن الحسين ـ وهو في معاناته المنتحبة ـ إلى مثل هذا الإدراك المجنّح، قفز اسمه من علي الأصغر، إلى العلي الأكبر، والتحق بزين العابدين!!!

وابتدأ الإمام زين العابدين بتنفيذ التصميم النهضوي؛ سيحيا به جداه: علي والنبي، أما الأمة، فقد رسم لها الخط الذي ستمشي عليه من المبتدأ إلى المبتغى... أما المنتهى فهو بلوغ روحي ـ ذهني غير محدود، مجالاته جنان من ورد تجهل كيف تذوي العطور بعد أن يعبق بها المكان!!! أما الخط الذي رسمه الإمام، فكان البارز في بند واحد:

«تخصيص الأمة بجامعة علمية مركَّزة على العلم الوسيع والكبير ـ الوسيع والكبير بالمعنى الحياتي الشامل كل شؤون الإنسان: المادية ـ الجسدية ـ المعيشية ـ الصحية... والروحية ـ العقلية ـ الفكرية ـ السياسية ـ الحضارية... وكلها شؤون إنسانية تنمو بها الأمة وتتطور ـ مع الكشوفات العلمية المكتسبة مع طالع الأيام والأزمان.

أما الخط الذي هو غلاف لأهداف وأبعاد ـ فإن الإمام استحصل له من الحاكم رخصة مشفوعة بضمانة صدَّقها الحاكم بالقبول:

ـ إنشاء الجامعة وتخصيصها بالعلوم بعيدة عن أي تدخل بالسياسة التي هي تصرف الحاكم ـ وحده ـ بشؤون الرعية.

وها هي الجامعة تنشأ بفتحة أبواب المسجد: وقد سارع الحاكم الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى توسيع حرم المسجد لاستيعاب عدد الطلاب المتزايدين.

أما كون الجامعة في المسجد ـ ولا في أي مبنى آخر ينشأ لها ـ فمعناه الذي لم يصرح عنه:

انبثاق الجامعة العلمية من محارم المسجد الذي هو أساس الانطلاقة الفكرية ـ الروحية العلمية... في ارتباطها بالخط الإمامي ـ النبوي المعين لإدارة الأمة بالتوجيه المركز.

وها هي الإدارة تنحصر بالإمامة المثلثة والمبتدئة بزين العابدين

يُحضر ابنه الإمام الباقر، يجمع كل العلوم من مصادرها، ويجعلها مواد الجامعة، وبتحضير حفيده جعفر الصادق، وقد رأيناه كيف حضره ـ ليكون إماماً متسعاً بالمدارك، والتي ستصبح دائماً موفورة. . . ومعنى ذلك:

مشاركة في نقل العلم إلى عقول الأمة، وتحريكها فاعلة في كل طاقاتها، وجميع معادلاتها. . . ومعنى ذلك أن الإمامة عامل متحرك في جهاز الأمة، لا بل حركة وصل لا فصل، تأخذ العلم وتنقله في عملية الضخ، كالقلب المتعافي بمناعة الجسم، ليدفعها ـ مضخوخة ـ إلى كل مساحة البدن: قوة، ونوراً، ورجاءً. . . ومعنى ذلك أيضاً وبالتمام: أن الإمامة ضرورة ممرَّسة بالمران الحي، والمتمادي بالنهج الفهيم، والصدق الذكي. . . وكلها توارث موصول بالمعدن النبوي الذي هو جوهر السماء.

سيبقى الإمام زين العابدين رمزاً من الرموز المضيئة: هدى الأمة إلى علم لا رجاء لها بغيره ـ فإن تقبل به بعلاً كريماً، كانت لها العيال الشهية، كأنها تنزيل من شهب ـ وأن تزغ عنه في ارتباطات المصير، فإن الليل طويل عليها في الوحدة العزباء، ولن يكون لها من فرقد الصبح إلا الرجاء المنتظر!

* * *

وإمامة الباقر؟ ـ لقد شدد هذا الكتاب البحث فيها قدر ما تحتاج القضية، لأنها الإمامة الوحيدة التي تمكنت ـ بحكم الظروف الطارئة والقاهرة ـ من تعيين الداء، وتحصيل الدواء ـ وهو الداء ـ كما رأينا: مرض الجهل والعياء، يصيب الأمة كأشد ما يقسو الوباء، وليس له إلا من روعة العلم امتثالات الشفاء. ولقد وصف البحث هذا الداء الفظيع كيف يفتك، وكيف أنه ـ فعلاً ـ قد فتك: ليس فقط بالأفراد العظماء الأولياء، بل بالأمة كلها التي انخسفت إلى مذلات القهقرى!!!

ولقد طال الوصف روعة العلم في عمليات التنوير، وتوسيع

المعارف، والتحقيق في الإنتاج المعيشي ـ الحياتي ـ الصحي، والفكري ـ الروحي، الحضاري، وهو الموصل الأمة إلى سوية ممتازة تمناها لها النبي.

وإمامة الباقر ـ وقد رأيناها في تمادي البحث ـ أنها هي ذاتها ـ بالتواصل والتكامل ـ إمامة أبيه الإمام زين العابدين، وإمامة ابنه جعفر الصادق، واطَّلعنا ـ ضمناً ـ على الأهداف، والغايات، والمقاصد، وهي كلها: الشريفة، والجريئة، والصحيحة، في تلوين الإمامة الثلاثية الملتحمة بنهج علمي واحد، يشتري الأمة، ويضعها على الخط الكبير الموصل، ويشتري الإمامة ـ بذات الوقت ـ ويحميها بجامعة علمية ترد إليها ـ مع مرور الزمان ـ إدارة الأمة الواعية إدارة مصيرية فاهمة حقيقة المصير!!!

وإمامة الباقر، لم تقصد أبداً أن تكون ثلاثية ـ وكفى ـ بصورة الحصر، بل انفتاحية استمرارية حتى نهاية الخط المرسوم باثني عشريته، والمختوم بالمنتظر، استئناساً منها بصدق الاستنتاج: بأن المدة التي ستطول إلى ما يقارب الخمس أو الستمئة من السنين المختومة بالإمام المنتظر، سيكون لها ـ من التدارس والعلوم ـ ما يحضِّر الأمة ببلوغ ناضج الإزدهار، يسمو بها إلى تحقيق ذاتها بذاتها، تحقيقاً عادلاً، وعفيفاً، وحراً مستقيماً، برعاية إمام لا يصح أن يكون إلا في حقيقة المبتغى!!!

وهكذا كان لإمامة الباقر قسط غزير في التفاؤل، كأنها صيغت منه في حقيقة القول: تفاءلوا بالخير تجدوه، في يومكم، وغدكم، وفي ظنكم الأمثل... وبهذا التفاؤل الكريم نجده الآن يحضِّر ابنه جعفر لأن يملأ الإمامة ـ بعد عدة سنوات ـ إذ يتركها له ويرحل، للإلتحام بأبيه زين العابدين ـ لعزم واحد لا يتبدل: وهو إمداد الجامعة بجهد علمي، عبقري، متزايد ومتفجر، في ظل صادق من التفاؤل الغني، والمتزايد، والمتفجر!!!

وامتدت إمامة الباقر ـ بضع سنوات ـ قبل أن يرحل، تمكَّن فيها من إفراغ كل ما في جعبته من علوم جمعها في عناوين، ولكنه صبَّها في «طروحات» تحكم بها الاستنتاج تحت استشارات المنطق، وألقاها، في عملية التلقين، على طلابه المتحلِّقين حوله في مدارج المسجد ـ وكان من أنبههم، في الإصغاء والتحليل، الفتى جعفر، وهو في نهدة من العمر تقارب الستة عشر.

ولم يكن جعفر بحاجة إلى تحضير معمق، فإن جده الإمام زين العابدين ـ كما شاهدنا وتحققنا ـ لم يترك لجة من لجج الأعماق، إلا ورماه إليها، وجلله بها، فإذا هو ـ بين يدي أبيه الباقر ـ أهبة معدة لأي سفر بعيد الغوص في عالم الفكر، وعالم الروح، وعوالم النجوى... وكان له ـ من الذكاء الفطري، والصفاء الذهني، والحضور المزهّى ـ روافد أخرى، مكَّنته في عمليات التلقط بكل المدارج الموصلة إلى كل علم، وكل فن، وكل أثر تتخبأ في محاراتها النفيسة ثوابت مدهشة أبهى من كل الدرر!!!

من هنا إن الإمام الباقر، ما تناول ابنه جعفر من حضن جده الإمام إلا طاقة بهية وجاهزة للتلبية... والتلبية ـ بحد ذاتها ـ كانت متوفرة بجميع عناصرها الأساسية المتولدة من صلب القضية التي هي: قضية الأمة، وقضية الرسالة، وقضية الإمامة الزينعابدينية المرسخة الأبعاد. والأهداف، والجهود، والفؤول النجية... لقد أصبحت كلها ـ مجموعة ومحزومة ـ في استعدادات جعفر، يختزنها في طواياه الشهية، لتصبح منه، في التشهي الممتاز والقادر في عمليات الاستيعاب، والاستقطاب، والاستنباط... وكلها مواعينه المسعفتة في الاستشغافات العلمية، والفلسفية، إلى تفكيك ألغاز المبهمات، وتوليد الحقائق منها إلى جديد يسمى: جديد المستطلعات... سيكون له مثل هذا التوليد ـ مثلاً ـ في استكشافاته الكيميائية، عندما يوعز إلى تلميذه جابر بن حيان بأن يصب

جهده ويجهز له قرطاساً لا يحترق ـ ويقال: «لقد كان له ما تمنى». . . أو في إيعاز آخر ـ أبهى وأدهى ـ أن لا يتعب جابر من التفتيش عن أية محاولة كيميائية، تقلب النحاس إلى ذهب، أو الفضة البيضاء إلى نوع من جمان!

تلك كانت استعدادات جعفر النفسية، لبّى بها أباه الباقر في إمامته المبنية على تفجير العلوم، وتغطيس الأمة فيها لغسلها من عيائها المزمن. . . ولم يكن عليه أن يجهد نفسه بإفهام جعفر كل ذلك، فجعفر ـ مسبقاً ـ كان يدرك أبعاد المقاصد: ألم يكن بين يدي جده عجينة تندس فيها ذريرات الخمير؟ فقط ـ كان على الإمام ـ أن يتبسط أمام ابنه جعفر بما اقتنصه من عناوين العلوم، وما كان عليه إلا أن يُعمل فيها: درساً، وتنقيباً، وتفسيراً، وكان على جعفر تقديم مساعدات ذهنية، استكشافية واستنتاجية واستطلاعية منطقية، أعطت العناوين مداليلها الخارجة منها والراجعة إليها: أكان ذلك كله في علوم التاريخ الغائب والحاضر، أو في الحساب الرقمي والهندسي، أو في خرائط الجغرافيا السياسية والاقتصادية، أو في شتى دروس الفيزياء التي هي بذور الحياة ومعاول الصناعات، أو في المخططات الكيميائية التي هي ضمير المعادلات والتحولات؛ أو في المرايا الفكرية، والروحية ـ سواء بسواء ـ والتي هي فلسفة، وفقه، ومنطق، وأحلام، وأوهام، وتخيلات، واستطلاعات. . . إلى كل ما هنالك من علوم طبيعية ـ اجتماعية؛ في تخطيطات لا يجوز أن تصيب منها حقاً وصدقاً، إلا الأمة بالذات، ليكون لها بناء إنسان سوي وعظيم، يبشر بالخير، وينأى عن المنكر، ويمجد الحق الذي هو سر الله في مهجة الإنسان!!!

وهكذا وجد الإمام الباقر ـ في ابنه جعفر ـ تلبية فاهمة وعاقلة ـ ساعدته مرتاحاً في إتمام إمامته التي هي ـ بالتمام ـ إمامة أبيه المرسومة. . . وهكذا أغمض عينيه، وهو ينقلها إلى ابنه جعفر، فيكملها، ويتكامل بها ـ لتكون ثلاثية ـ به ـ موحدة في النهج والجوهر.






الوصول المستريح

الوصول المستريح

الإختصاصات المستريحة

العقل

التوجيه

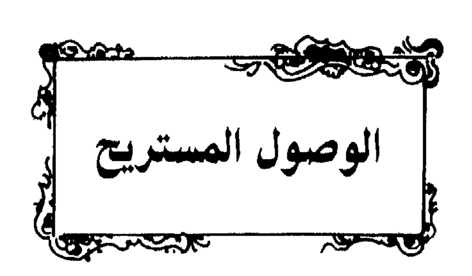
المواهب

- ضمير المعادلات

- الإنتاج الثمين يلبي روعة التوجيه





الوصول المستريح

إنه عنوان القسم الأخير من هذا الكتاب في بحثه الموجز عن الإمام جعفر الصادق، ليكون نعته «بالمستريح» إشارة تدليلية إلى أن كل ما اجتهد به القول في هذا الكتاب، قد أوصلنا ـ براحة مطمئنة ـ إلى كنه الرجل العظيم الذي هو الإمام جعفر الصادق.

أما الوصول، وإن يكن هكذا موصوفاً بالرحرح، فإنه يعني وصولين وسيعين، مستريحين وموصولين بهدف واحد وعظيم: وصول جعفر إلى الدائرة الكبيرة والوسيعة والمرسومة لجامعة علمية متسعة لكل المعارف الإنسانية ـ الإجتماعية ـ الحياتية... ومن ثم ـ بالتالي ـ وصوله إلى إمامة ـ أيضاً ـ مركَّزة على أوتاد أصيلة ومتينة، إشباعاً، وإتماماً، وانصهاراً في الهدف الواحد الذي عيَّنته وصمَّمته إمامة زين العابدين.

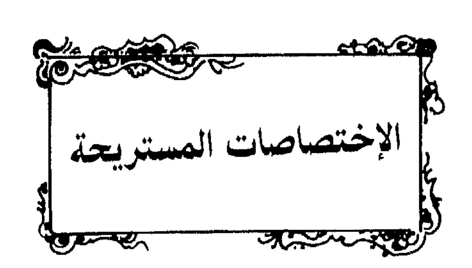
هذا هو الوصول المستريح ـ تلبسه العنوان ـ مفسحاً للبحث الذي لا يتمكن من أن يأتي إلا موجزاً، في متابعة التلميح عن عظمة يستريح في كنفها الإمام، وها إني أفسر كلمة التلميح بأنها إشارة صغيرة مقتضبة، وليست توضيحاً وسيعاً لعظمة تردَّاها الرجل ونزل بها إلى ساحات الرهان...

وإن الحقيقة المستريحة أن تقال: ليس الإمام الصادق أقل من عبقري مميز بطاقات غزيرة المواهب، ومنوعة الأداء... إنه مجموعة

معارف، ومجموعة جهود، ومجموعة علماء... وإنه السبَّاق في التحصيل، وفي الإحراز، وفي ملء أي فراغ... ولو أن العصر والبيئة ـ اثناهما ـ كانا له: في بعض من سوية أو بعض من اتزان، لكانت له إنارة العصر بالضوء الكبير، وتزيين البيئة بأمة منتصرة على كل نسيان!!!

أقول ذلك ـ فقط ـ لأعني: أن موهوباً من هذا النوع الجليل ترك حوله خطاً مليئاً بالإنتاجات البكر، وكلها علمية، وفلسفية، وإجتماعية... وفوق ذلك، أنها في ذاتية من توجيهات معينة وهادفة إلى غرض واحد ومبيَّت في تصميم إمامي مدروس، ومخصص لجمع أمة ورفعها إلى المرتبة المرموقة فكيف يكون لقلم مفرد، أن يتناوله في كتاب واحد، ليس له غير الحجم الصغير المفرد، إلا باللمح الصغير المفرد؟ ـ أما التوضيح الوسيع، فإنه يبقى في عهدة أقلام أخر، تكون لهم ذات الاختصاصات المنوعة والكبيرة التي ذهب إليها كلها الإمام الصادق.

وهكذا، فإن الكتاب هذا يكتفي بالتلميح الرشيق المتاح له في القدر الممكن، معتبراً أن وصول الإمام إلى أي من الفروع العلمية التي ولجها بتبصر وتعمق، كان ـ أيضاً ـ وصولاً مستريحاً.



الإختصاصات المستريحة

إنها كثيرة والحمد لله المستريح في مواهب ذاته، يوزع على خلقه من فيوض لدنياته: حقاً على طالب حق، وعلماً على طالب علم، ورجاءً على طالب رجاء... وإن الصدق في التمني هو المستجيب فالمستجاب! فسبحانك يا إله الخلق، تلوّن الأرض بالعباد، والعباد بألوان الرشاد... فإذا سجدوا، سَجَدْتَ بهم إلى ملكوت، وإن ضلوا رشاداً، فإلى مواعيد الرشاد... كأن الإنسان هو ابن حرية مثلى حتى إذا أراد كان له ما أراد!!!

يا للإنطباق في التمني الأصدق، يصمّم به الإمام زين العابدين إمامةً مثلى، يبعثها من إيمانه اللجوج بعلم تحتاجه الأمة، فيحوِّشه الإمام الباقر ـ لأنه أراد ـ ويفجره تحت عتبات المسجد، ولا يختمر إلا به الإمام الصادق، في رغبةٍ واسعة الاشتياق، فإذا هو مجموعة اختصاصات وصلت إليه مستريحةً كأنها وصلة من جزاءٍ تمنّاها فنالها كما تنهمر الهبات!

كأني أسمع ـ بعد تنهدي بهذا القول ـ صوت كافر يرتفع متهكماً من زاوية مجهولة:

ـ ولماذا لم يطلب زين العابدين تحقيق الأمة الفاعلة كما طلب تحقيق العلم لها وتمتين الإمامة؟!!

وكان الجواب السريع:

ـ لأن الأمة التي لها التحقيق، كذلك فهي لها الإرادة ـ وإنها لم

تتجهز بعد لأن تريد.

وتعدّدت اختصاصات الإمام وتنوّعت في مواعيده: فانصبّ انكباباً على مناهلها من دون أن يفضّل منهلاً على منهل. كأن العطش هو واحد في مقاييس التساوي، ولا بدع، فإن العلوم كلها ـ من دون تمييز ومفاضلة ـ هي من الحزمة الواحدة المنشودة، تزنّر الجامعة بدائرة الشمول، لأن الأمة التي هي شمول في الحياة، إنما هي المحتاجة ـ في شؤونها الكلية ـ إلى ما يززها بمثل هذا الشمول... وتلك هي بنية الإمام الصادق: تحصيلٌ شامل، واستيعابٌ كامل، وتلبيةٌ مستعدة لملء كل فراغٍ يسدُّ على الأمة إطلالاتها المريدة.

بمثل هذا الانسياق المتوازي رأيناه سجوداً مشغوفاً بجده الإمام زين العابدين ـ لمدة عشر سنين ـ يتشرَّب منه سكبات المناهل، كأنها أراجيز من بحور المعارف الغنية بالقوافي، وبكل روعات الفواصل، والمخارج، والمداخل... وهكذا انفتحت على أفقه كل المعالم، وكل الخوافي، وكل الظواهر، وانفتحت أمامه: سجلات التاريخ، وسجلات الأبجديات، والحضارات، والجغرافيات، والفلسفات ـ وما ارتباطاتها كلها إلا بالإنسان، ومجتمعات الإنسان...

ومن أروع ما تشدَّدت به البحوث أمامه، ما كان تخصيصاً في الأمة: كيف يتم نقلها من هزالٍ ذليلٍ وحقير، إلى قوةٍ محترمةٍ يكسبها العلم الكبير، لا العلم الصغير المصفّد!

وبمثل هذا الانسياق المتوازي ـ أيضاً ـ رأيناه حضوراً صافي الأديم ـ لمدة عشر سنوات أخرى أو ربما أكثر ـ بين يدي أبيه الإمام الباقر، يراقبه كيف يجمع العلوم ليفجرها، فراح يعاونه في عملية التفجير، ويقذفها إلى أوسع، وإلى أعمق...

وما ان انتقلت به المحطةُ إلى مندرجات اليقين، حتى انتقل به المجال إلى التبصُّر المطلق، فراح إلى الفلسفة ـ مثلاً ـ يستجليها في

مراميها فيُبهيها بما فيها من مداليل الحق، ثم يلوي عليها، بالشفرة المسنونة، فيقطع منها ورماً وخيماً جاثماً في ثآليل البُطْل!!!

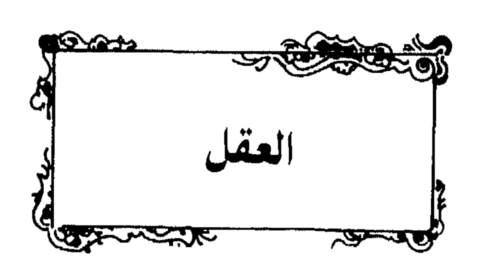
وراح ـ مثلاً أيضاً ـ إلى علم الجغرافيا البطليموسية، وقد جمعه أبوه الباقر، وكانت نظرية بطليموس تشير إلى أن الأرض هي مركز العالم، وهي كروية ثابتة، والشمس والنجوم تدور حولها ـ وها هو الإمام الصادق يوجه أول نقدٍ علمي لهذه النظرة. ويبين أن الأرض هي التي تدور وأن الشمس والنجوم هي الثابتة...

وكثيرة هي العلوم التي حازها الإمام وتيقَّنَ منها، ثم كانت له نظريات جديدة فيها، راحت تنقدها، أو تكمّلها، أو توسّعها بابتكارات حيةٍ أو جريئة، ومصيبة، أكانت فيزيائية، أو تجريبية طبية تشريحية، أم علوماً فكرية، روحية، عرفانية، أو بالأحرى والأخص، كيميائية، مما يدل على أنه كان في مرتبةٍ من التفوق العام في كل فرع من الاختصاصات العلمية التي أخذها عن أبيه ثم زادها ـ من استطلاعاته الخاصة ـ مما جعلها تعتبره صادق الإلمام.

وإذا كان لنا الآن أن نفهرس كل ما جناه من العلوم في عناوينها المعيَّنة لها، فلينلنا العجب ونحن نرقمها محتلَّة ـ بمضامينها الوسيعة ـ جيوب مداركه العقلية، والنفسية، واليقينية، يتصرف بها تصرفاً اجتماعياً بصيراً وفاعلاً، وهكذا فليكن لنا أن نلمح:

إنه فيلسوف، وفقيه، ومشترع، وطبيب، وعالم تشريح، وفيزيائي، وكيميائي، وصاحب معادلات، ومؤرخ، وعالم اجتماع، وجغرافي، ومصحح حدود، وأديب، ومؤلف، ومدوّن، وصاحب آراء... وهنالك غيوبٌ جلاها، وسياساتٌ براها من دون أن يستر صدره بقمصانها...

تلك هي عناوين اختصاصاته... فكيف احتواها؟ وأي شيء فيه هو الذي احتواها؟!! ولكن الفضاء الذي هو كنه الوجود في رهيب اتساعه، لن يكون له ما للعقل في مهابات ارتفاعه!!!



العقل

إن الله سبحانه في حقيقة المطلق ـ هو العقل في مدارج المطلق ـ ولولاه عقلاً، لما كان الوجود بكل ما فيه من حقائق العظمات، غير بحار ضحلة، فوق شطآن يابسة تزدردها الرمول إلى صحاري لا حياة فيها ولا نسمات!

وليكن العقل رغوةً ممصوصةً من تربة الجسد، كأنها الطحلب، إلا أنه صفوة من بصيرة، كما هي البلورة المعصورة من نقاوات الزجاج المشقَّف بالأشعة!

وافترق الإنسان عن الحيوان، بأن الرغوة الملوَّنة ببهاء الشمس، هي بلورته البارزة فيه، والمميزته بين صنوف الخلق، والنائمة في أسلاك عينيه، وفي شغاف أذنيه، وفي مدى أحاسيسه الجميلة، وخلف دنيوات مداركه المشتغلة بالتلقط النادر!

ولكن الكتلة الدماغية هذه ـ وهي الموهبة الثمينة المغروفة من الصدر اللدني الأبهى ـ تبقى وحدها المحتاجة إلى جلواتٍ تبصُّرية، تزيل عنها علوق أغبرة الرسوب، وتنشِّطها إلى استئنافات حيوية، هي لها المرسومة في جدِّية القصد من نهدة التكوين. . . والكسل ـ بالذات ـ هو غبار من شلل يفتك بكل بلورة من بصر، ويطمسها بالغبار!!!

حرام، وحرام حزين! قال في سره الإمام زين العابدين: أن نرى الناس تطغى على بلوراتهم السماوية، أغبرة ترسُّبية، وهكذا تذللهم

طبقات الغبار!!! ليس على الإمامة من هم - يتابع الإمام - إلا أن ننظِّف المرايا من كدسات الغبار!!!

وهكذا فتحت أبواب الجامعة في يثرب على مصاريعها، وكان تجميع العلوم لبقرها، وهكذا كان تنشيط القرائح - بشحذها - وهكذا كان الابتعاد عن السياسة المجرمة، لأنها - بذاتها - حوملات غبارٍ من ظلم، ومن ذل، ومن إنهاك، ومن إحقار!! وهكذا ابتدأ العقل يعود إلى مرابعه المفجورة من الأسلاك المشعة، ويعود إلى الأحاسيس الشريفة التي أبعدت دهراً طويلاً عن ملامسها النديَّة... ويعود - أيضاً - فيحتكم إلى المدارك التي أقحلت تحت وطآت الركود فتملَّكها القحط، وأيبس فيها الشهوة الروحية الإلهامية، مما قربها من الحيوانية المختبئة في هيكلية إنسان، وهي في عجموية الحيوان!

والعقل في الإنسان - وإن يكن في كرويةٍ لدنية علوية - إنما هو المعرَّض لانحطاطات تردُّه إلى بهلوانية قردية، في أي وقت لا تتنشَّط فيه المزايا الأصيلة، فتُذَكِّره أنه الطوق الوحيد الذي يشتد باشتداد قوى الحركة، من دون أن يتعب، ويتراخى بطيئاً، بقدر ما تنشلُّ فيه الحركة، ويهمد إذ تهمد!!!

والحركة - أكانت سريعة أم كانت بطيئة - إنما تبقى في رهوها الخفيف الفاعلية، ما لم تنفجر من ذاتها بذاتها، في عملية التعبير عن شوق النفس إلى صبابة تلهبها إلى حاجة التحقيق، وأريحية المثول... فالحياة الكريمة هي تحقيق نابضٌ بها، ومثول مرجًّى منها ولها - وليس سوى العقل في عملية الاستنباط - وعمليات الوصول إلى مبتغى الذات، في أنانية الذات التي تسمو بقدر ما تنمو - هي - كريمة!!

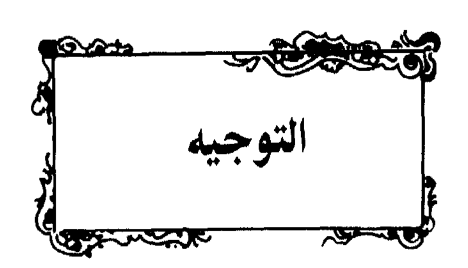
من هنا كان قصد الإمام زين العابدين تنشيط الحركات الفاعلة في عقل الأمة، بواسطة نشر العلم في مفاصلها الكسولة، حتى يشملها إدراك نابت منها: بأن الوعي الصحيح يحضِّر الإنتاجات الفكرية، والروحية،

والمادية، ويولّد الرفض لكل ما يسبب الخمول، ويعرقل التقدم والتطور. . . وتلك هي الحوافز المتحركة، والمتوسعة ـ من يوم إلى يوم ـ في شمولها ـ بالتدريج ـ كل أفراد الرعية، وكل واحد في دائرة حقله، حتى إذا ما جاء الزمان بالمهل الموفورة، شملت المجتمع كله طاقات عقلية فاعلة وناجزة، وتلك هي القضية المتنقلة ـ بالحركة الذاتية ـ من برج إلى برج، لا صدأ فيه، ولا كثافة من غبار!

هنالك عقل يتمتع به كل إنسان ـ إنه حصته ـ وليكن التفاوت وسيعاً بين تقتير ورجحان ـ إلا أن وفور القضايا المهمة في مجتمعات الأمم ـ يخفف من هزال الضعفاء، ويقرِّبهم من سوية. . . ويزيد من رجحان الفهماء ويلفُّ بعضهم بعبقرية. . . والعلم الصحيح الموجَّه، والذي هو: حقيقة معرفة، وحقيقة إدراك، وحقيقة صدق، وحقيقة مجتمع وإنسان. . . كفيل ـ دائماً ـ باجتراح المعجزة!!!

وهنالك ـ أيضاً ـ فارق بين علم وعلم، يباعد ـ ما بينهما ـ قصد وهمة، ليبقى التوجيه الكبير والصادق والهادف، مكسباً للعلم ـ من معدنه، وجوهر لبّه ـ سعة أخرى، فيها إرادة الصادقين، وهمة النبلاء!!!

لا أقول ذلك، وأشدد عليه، إلا لأعني: أن العقل الذي تمسَّح به الإمام الصادق، هو من الصنف الفريد الهابط من الشوق الفريد المتحلي بإرادة جليلة ملتهبة بالحق، والعزم، وروعات القضية ـ إنه التوجيه الخارق، مسح به الإمام زين العابدين، عقل حفيده الإمام جعفر الصادق.



التوجيه

هنالك ارتباط عضويّ بين الموجِّه، والموجَّه، والموجّه إليه، ليكون التوجيه قيمة حاصلة من هذا التفاعل الاحتكاكي، الارتباطي، المعيَّن، بمعنى أن التوجيه هو الحاصل من احتكاك مقصود بين الموجِّه والموجَّه إليه، ينتج منه استيعاب مكثَّف بوضوح أجلى، وبتحقيق أجدى.

أنا بدوري، ما أُخذت بتوجيه فاعل وباهر، كالتوجيه العظيم الذي أسبغه الإمام زين العابدين على حفيده جعفر الصادق، إن العظمة فيه أنه حياكة فنية، على نول رشيق، بمكوك أنيق، وخيط متين الغزل وصادق التنسيق... ولقد رأينا ذلك كله يحصل في سياق هذا الكتاب، يقوم به الإمام ابن الحسين الشهيد، وهو يتعهد حفيده جعفر - من عمر يوم إلى ما يزيد عن عشر سنين - بتربية واسعة الإحاطة، وبالغة التدريب، فيها ألوان وأنواع كثيفة من الأخلاق، والمعارف، والتاريخ، والاجتماع، والفلسفات، والسياسات، والأبعاد الفكرية والروحية... وفيها: بشكل تخصصي، وموضَّح، كل ما يتعلق بالرسالة، والنبوة، وأهل البيت، في ارتباط وثيق بالأمة التي هي: شأن، وملاذ، وقضية.

بهذه التربية الواسعة اكتمل التوجيه الشامل لجعفر الصادق! ولكنه التوجيه النازل في النفس منزلة الصياغات الحافرة في التماثيل أشواقاً أخرى، لا تحلم بمثلها إلا عبقرية الإزميل... والحقيقة أن هذا الجعفر قد لبّى الاشتياق الحافر والمحفور في قالبه المنوَّر، وانبثق استيعاباً ملماً بكل

حقل من الحقول الوسيعة التي تحتاجها الأمة في مسيرتها الحياتية الجامعة والصاعدة بها إلى أي تحقيق يبتسم به الغد الصادق بالعزم الإنساني الخيِّر.

وحاجات المجتمع ـ وما أكثرها ـ هي المعيَّنة في منهج التوجيه، وقد نزَّلها الموجِّه في حفيظة الموجَّه، لا لأن يُلمَّ بها كلها درساً وإحاطة، بل لأن يرهبها هماً وإناطة، فهي الكثيرة والوسيعة في منابع الأمة، وهي التي لا تنتهي، ولن ينهض بها إلا مئات ومئات من أصحاب الاختصاص، ولن يستوعبها ـ كلها ـ في تناميها، وفي مداها الكبير والمتوسع، إلا المجتمع المتفاعل بها في مدى مجالاته الزمنية، فيستوعبها بلا إحصاء، ويرقِّم حاجته إلى كل فرع منها، فيوليه تدرجاً في الأوّلية، ثم احتياطاً واهتماماً، لينسكب فيه انبثاقاً وانسجاماً... لأن الأمة ـ في الواقع الراهن ـ هي اندفاق من ميولها النابتة من حاجاتها البيئية المادية والروحية، ولا تنمو إلا بها مرزومة: حقاً، وصدقاً، وتصنيفاً، ومن ثم تحقيقاً وطيب رجاء.

تلك هي الحاجات الاجتماعية في تنوعات شمولها، ما انفك الإمام زين العابدين يلملمها، ويوسع بها التوجيه المخصَّص بحفيده جعفر، حتى إذا استوثق من إفراغ حمولته في ميناء متين، ترك الشاطىء إلى السفينة الأخرى، حيث لها العباب بلا شطآن!

وباكراً جداً أدرك جعفر ـ من لجاجة أشواق جده إلى اقتناص العلوم وجعلها في تناول الأمة ـ كم هي الأمة في مجاعة وتضوُّر إلى كل مادة علمية يغيب عنها اسمها وحقيقة فعلها، وها هو أبوه الإمام الباقر يفجِّر العلوم التي لا يعرف أحد، لا كيف يقرأها، ولا كيف يفسرها... وهكذا تكشفت له الأسباب الحزينة التي تكبل الأمة عن أي تحقيق تتلمّس فيه أية سوية!!! وهكذا توضح أمام بصيرته: أن الجهل المعشش في العيون، وفي المهج، إنما هو كل البلاء، وكل شناعات البلاء!!! وهو ـ بالذات ـ هذا العقيم الأجرب، أنزل حزناً في رجاء الرسول وهو يبايع علياً، حتى فتاه

علي يُبايَع!!! وهو ـ بالذات ـ سلَّم ابن ملجم شفرة سوداء، نحر بها ابن أبي طالب، وحتى الآن ما زال ابن ملجم خلف الباب وما تاب!!! ولماذا لا يزال هو ـ بالذات ـ يخرِّش سجية ابن الخطاب، ويمتص الوعي من خلية أبي بكر، ويزرع السوء في مهجة ابن عفان، والدهاء في سريرة الصولجان الموشَّى بابن سفيان!!! ولماذا لا يكون هو ـ بالذات ـ ملفوفاً بعباءة يزيد ينشرها فوق مخيم في كربلاء التي هي عاشوراء جده الحسين!!!

ألا بئس الجهل ـ تتابع جعفر في التأمل ـ لا يفتك ـ فقط ـ بنخبة من أولياء لا يعرف كم هم أولياء، بل إنه المتجنِّي على مجتمع برمته، ويمنعه عن حقيقة الإطِّلاب؛ حتى إنه ينسيه أنه إنسان، ومن أطيب الأنسال؟ وأن عليه أن يحقق وجوده الكريم والعاقل في ظل من ظلال المعرفة التي هي شوق العلم في تمرُّس العقل المفتش عن حقيقة ذاته في دنيا الكرامات ومعالم الوجدان... وإذ ما يعطِّل الجهل هذه الانفتاحات الشهية في مجتمع الإنسان، فيا ويل هذا المجتمع ـ بالذات ـ من انهيارات لا ينجيه منها إلا العلم الذي يحمله له في صوانيهم أولئك الأولياء!

والعلم هو حقيقة المعرفة، وحقيقة الإنتاج، وحقيقة الحضارات... والجهل هو الفجيعة النابتة من الغياب الأصيل، وهو الفارغ إلا من البؤس، وثقل الانخسافات، ويا ويل أمة لا يكون العلم من معالمها البينات!!!

ولم ير جعفر أنَّ رشق الجهل بعوراته وسيئاته هو اللازم والمفيد، لا بل إن الأكثر لزوماً والأشد إفادة هو في المبادرات السريعة إلى لملمة العلم من كل حواشيه الغائبة عن لحاظ الأمة، وتفتيقها من مخابئها المكنونة فيها، ورويداً رويداً تنجلي أمام مدارك الأمة مجالات العلم في غزو المفاهيم، وتقويم المقاصد، وعندئذ فالجهل إلى اندحار لا شك في استمراره مكنوساً من الساحات.

وراح الفتى المأخوذ بتوجيهات جده العظيم، إلى أبيه الإمام الباقر ـ في عملية باهرة من عمليات الالتحام ـ يساعده في تفتيق العناوين العلمية واستنطاقها ما أمكن ـ عن مداخلها ومخارجها، وعما يتخبَّأ في مدارجها، حتى إذا ما أسلست لهما ـ تحت لجاجة الاستقطاب ـ بعض المغالق، سدّداها بما يطابقها من الاستنباط، واعتبراه ناتجاً علمياً مرصوداً. . .

ـ ٢ ـ

بعد نيّف وعشر سنين، ترك الإمام الباقر مؤسسته الجامعية في عهدة ابنه جعفر البالغ اثنتين وعشرين من العمر المكدور بالجهد الفريد، والتحق بأبيه الإمام زين العابدين، ليخبره أن الأمة ـ من بعده ـ إنما هي ماشية على الخطوات المرسومة، هذا إذا صفا لها جوٌّ يهددها بكثير من العكر، مع أُفول نجم بني أمية، وبروز نجم آخر، يتظلل به بنو العباس تحت عباءة من ليل يرتديها السفاح، ويتلطّى ـ ضمن خيوطها ـ المنصور الدوانيقي الذي لم تتلقَّح بأدهى منه أرحام النساء!!!

وجعفر؟ ـ وهو الآن في التزام إمامي معين ـ يتمثل أباه شاخصاً في حضرة جده الإمام زين العابدين، يفضي إليه بأخبار الأمة التي يتلاعب بمدِّها ـ بالتناوب ـ بنو سفيان، وبنو مروان، وها هم الآن بنو العباس يتناولون جزرها ليغرقوه في مدود لهم، يتخبأون فيها، كما تتخبأ المناجذ في أوجارها المعتمات! ولكن الجد الغارق في كشوفاته العليمة، ما ترك الأمة مجرَّدة من سماء، إلا بعد أن جهَّز لها من يفتح عينها تحت أضواء السماء، وها هو الإمام جعفر يتلمس ذاته، وهو يشعر أنه الوصلة المثلَّثة في الإمامة الزينية، وليس عليه إلا أن يتمِّم التعهدات المرتبطة بتركيز الأمة على سلالم تدرجها العلمي الموصلها إلى كل تحقيق واع ومرهَّف، من دون أن يؤخذ ـ ولا بشكل من الأشكال ـ بالفورات السياسية التي راح يتداعب بها زعماء هذا العصر، ولا بد لنا إلا أن نسميه بعصر الصادق.

عصر الصادق

ونقول: لقد ابتدأ عصر الصادق بيوم ولادته على عهد الخليفة الظالم الوليد بن عبد الملك بن مروان، ومن مآثره بناء الجامع الأموي في الشام، ولقد صادف أنه زار مدينة يثرب على أيام الوالي الطيب النفس والصافي السريرة عمر بن عبد العزيز، وهكذا ـ تحت إبط هذا الوالي المنزَّه بمكرماته ـ قام هذا المرواني بزيارة المسجد الذي بناه الرسول العظيم وخشَّعه بأولى ركعاته في يثرب!!! إنه أول مسجد عرفه الإسلام في دنياه التقية والسخية، وهو الآن المرصَّع بأول جامعة علمية تجمع الجزيرة كلها إلى خوانٍ من علم موسَّع، يرفع فيها الصلوات من أغبرة التراب إلى أبهاء ألوان الفضاء الذي هو: عطر، وفهم، وعلم رهيب الجنبات.

واقتحم الخليفة بوابة المسجد الجامعة، بخطوات جعلتها رهبة المكان رصينة متزنة، ليشاهد في الصحن القدوس أستاذاً راكعاً على ركبة، وسط حلقة من طلاب رابضين وهم ركَّع، وأعناقهم إلى الأستاذ في تلع الإصغاء، وكان الجو كله في رهبة الإصغاء المجلَّى!!!

وأصغى الزائر ـ أيضاً ـ إلى الطلاوة النازلة من أفقها السليم: وكان الدرس فصلاً من علوم الجغرافيا المحفوظة في أذهان الأقباط من شفتي بطليموس بالذات، تركها في قراطيسهم منذ ألفي سنة ورحل، فحفظوها تقريراً علمياً لا يجوز أن يهمل... وهكذا اقتنصه الإمام الباقر، وها هو يحفره في آذان طلابه المتحلقين حوله كأنهم معه في صلاة!

ولقد استلفت انتباه ابن مروان، بشكل معين، إصغاء طفل راكع أيضاً مع الطلاب الراكعين، وما كاد يوشوش رفيقه الوالي ابن عبد العزيز بإعجابه بالتلميذ النجيب، حتى تنبه الأستاذ إلى الزائرين الواقفين في رحاب المسجد، وهكذا تمَّ للأستاذ، وللطلاب، قطع الدرس عن مداره، والترحيب بالضيفين الوافدين لزيارة الجامعة، وإن التاريخ لا يزال يحفظ

حواراً صغيراً داعب به الوليد الطفل الذي أعجب بإصغائه، إنه هكذا وارد:

ـ ما اسمك يا طفلي النجيب؟

ـ جعفر ـ وأبي أستاذي الباقر ـ وجدي الكبير هو الإمام زين العابدين.

ـ أصبحت أعرف.. أتقول لي؟ من هو صاحب المنطق؟

ـ إنه أرسطو.

ـ ومن هو صاحب المعزّ؟

ـ ليس المعزّ اسماً لشخص مثلك، وإنه اسم لمجموعة نجوم تدعى: ذات الأعنَّة، أو بلغة أرسطو: أوريكا.

ـ عظيم... ومن هو صاحب السواك؟

ـ إنه لقب أطلقه جدي رسول الله على عبد الله بن مسعود.

قبل أن يترك الوليد الجامعة أو مدينة يثرب، صافح الإمام الباقر وهو يربِّت بكفه على كتف جعفر، وهو يقول:

ـ سيكون ابنك يا سيدي علاَّمة عصره!

ومات الوليد قبل أن يتأكد له صدق تنبئه، لقد كان جعفر في السادسة عشرة من عمره عندما لفظ الوليد أنفاسه.

ومثلما كرت المسبحة السفيانية من معاوية حتى انتهت بيزيد السابح في مهامة كربلاء، هكذا ابتدأت تكرُّ الآن مروانية: من الوليد بن عبد الملك بن مروان، إلى عمر بن عبد العزيز النظيف الكف والطيب الفؤاد، إلى يزيد بن عبد الملك المتنكر لانفتاحات ابن عبد العزيز، والمأخوذ بعشق جاريته الجميلة حبّابة التي ازدردها، فتعلَّقت في حلقه، فخنقته بعد أن خنقها وهو يمصصها حبة عنب!!! وهكذا إلى هشام بن عبد الملك الذي حصلت على أيامه ثورة الشهيد العلوي زيد الشهيد، وهو عم الصادق، قتيل الكوفة، والموارى ـ سراً ـ في جوف النهر، والمنبوش من

قبره، والمبعوث إلى دمشق حيث اقتص منه هشام ونشره مقلوباً على عارضتي صليب فوق ضفة النهر بردى، لمدة عدة أيام حتى يراه المارون ويعتبروا كم هي الشهادة مرذولة في حسبان هشام!!!

ووصل الحكم إلى الخليفة الوليد بن يزيد الذي خَلَف النبي الكريم وتناول مسلسل قرآنه ورماه إلى الجو، وقذفه بواحد من مسدَّدات سهامه، فخرقه وهو يقهقه:

إذا ما جئت ربك يوم حشر   فقل يا ربّ مزّقني الوليد

ولم ينته المسلسل المرواني إلا بابن الوليد يزيد الموصول بأخيه إبراهيم، يحذفه مروان بن محمد من الخلافة، حتى ينجيها من اضطرابات قوية قام بها العلويون تنفيذاً لمقررات جازمة تلفظ بها مؤتمر الأبواء الهاشمي، بقيادة رئيس المؤتمر ـ آنذاك ـ إبراهيم الإمام العباسي، وتحت عباءته: السفاح والمنصور المدجّلان على صالح بن علي، وعبد الله بن الحسن!!! وهكذا تمَّ تسليم قيادة الثورة على المروانيين، لأبي مسلم الخراساني أدهى وأقوى قائد «مدسوس» في مخابىء بني العباس!

ومشت الدعوة الأبوائية وهي تشير بإصبعها إلى محمد بن عبد الله بن الحسن، ليكون إمام المسلمين ـ بالظاهر ـ بينما كانت الإمامة ـ في السر المكنون ـ للعباسيين الملفوفين بقميص السفاح، ومن خلفه منصور الدوانيقي: تماماً كما كانت السقيفة تبايع علياً وهو يبكي على نبيّه وأخيه، ويناجيه أن لا يغيب، ليكون لها تثبيت أبي بكر في الولاية، وهو الذي كان أكيداً من أن من يموت لا يعود!!!

أما مروان بن محمد، وهو المحجوز في الشام، فأدرك أنه عاجز عن تجريد المؤتمر من القائد الخراساني الذي ألهب الثورة وحقق النصر، لا لمحمد بن عبد الله بن الحسن، بل السفاح الذي وفد يهنئه بالنصر حتى عبد الله أبو الحسن، وكان ذلك في تمام سنة ١٣٢!!! وفي هذه السنة ـ بالذات ـ انتهى حكم المروانيين الممثّل بآخر واحد منهم، وهو مروان بن

محمد!!! أما المدة المروانية التي عايشها الإمام الصادق، واستخلص منها كل العبر، فكانت محصورة باثنتين وخمسين من السنين، أي من خلافة الوليد بن عبد الملك بن مروان حتى البقية من حكم مروان بن محمد.

لم يبق من عصر الصادق المبتدىء بيوم ولادته سنة ٨٠ هـ، والمنتهي بيوم وفاته سنة ١٤٨، إلا اثنتا عشرة سنة، قضاها كلها في معاشرة الأخوين: السفاح الذي سفح الأمة على مدى أربع سنوات، وولّى تاركاً عملية السفح في عهدة أخيه المنصور، ليقوم بها على أكمل وجه!!!

واقتاد المنصور الطالبيِّين إلى الهاشمية، وصرع العديد منهم ـ بالتدريج ـ ابتداءً بعبد الله بن الحسن، وانتهاءً بأبنائه: محمد، وإبراهيم، وقد زجهم بالسجن وهدمه عليهم!

وصادر المنصور أموال الصادق، ولم يرجعها إلى ابنه الإمام موسى الكاظم إلا المهدي بعد وفاة المنصور، كما وأن المنصور، على الرغم من بنيته النفسية الشوهاء، لم يتمكن إلا أن يحترم الصادق، ويتقرَّب إليه، وبقي الإمام مبتعداً عنه، ومحترساً منه!

ـ ٣ ـ

ذلك هو عصر الصادق، رأينا أن نقدمه بنوع من التصنيف الذي يقتضيه واقع التعريف، ولكن الصادق لم يبرز فيه معارضاً لأي خليفة متربع في دست الخلافة، وبيده إدارة الحكم. ولم يتدخل مطلقاً مع أيِّ خط من الخطوط المشتغلة بنقل الإمامة من مروانية إلى علوية باسم عبد الله بن علي، أو عبد الله بن الحسن، ولم يشارك في مؤتمر الأبواء لمساندة محمد بن عبد الله بن الحسن، أو تخليصه من الخديعة العباسية، ولم يعترض على وصول السفاح إلى الحكم، ولم يدخل في الثورة التي قام بها ابنا عبد الله بن الحسن: الزكي محمد وإبراهيم!

أجل لم يفعل الإمام الصادق شيئاً من هذا، مع أن الخط العلوي الثوري رجاه للتدخل، ولتزعّم الموقف حتى تعود إلى أهل البيت مرتبة القيادة، ومهمات السياسة، لا سيما وأن انهيار العهد المرواني هو في الواقع الحاصل، وأن المخادعة العباسية تضمن الوصول!!!

أجل، إن شيئاً واحداً من كل ما هو معروض أمامه في واقع العصر، وفوق الساحة المكشوفة، لم يستحثه إلى نبضٍ من التدخل الفاشل... وفقط، حاول إقناع أهله الأقربين بأن يلزموا الهدوء والسكينة، وأن لا ينزجوا في تحرك يوسع عليهم وتائر الحقد، وعلى الأمة مجالات الشلل... على رؤية ـ عنده ـ تؤكد أن احتلال الساحة هو للماكرين من بني العباس... وعلى اقتناع واسع أيضاً: بأن الأمة ـ وحدها ـ هي التي تتمكَّن ـ بوعيها ـ لو أنه حاصل، من ترويض المتزعمين: أكانوا سفيانيين، أم مروانيين، أم عباسيين، ومن جعلهم إنسانيين، إذ يتسلمون مقاليد الحظيرة!

ثم إن التوجيه الكبير المعيَّن والمسدَّد، هو الذي تلقَّاه الصادق من قاعدته المسماة بزين العابدين، فانمهر به نهجاً يشتري الأمن بترك السياسة للحاكمين، لقاء أن يترك الحاكمون للإمام أن يملأ الجامعة بمواد العلوم، وبذلك يتم التعليم بنشر الثقافات على الأمة، فيتعزَّز فيها الفهم، والإدراك، والوعي الذي يحركها على الترحيب بكل حاكم يرتب أمرها، وعلى رفض كل حاكم آخر لا يحقق لها مطالب الصدق..

من هنا اعتبر الصادق أن كل حركة تزعمية يقوم بها اليوم في المجتمع أي فريق، هي كلها من صنف واحد، ولا دخل له فيها يصنِّفه: مع، أو ضد... مما سيعرقل مهمته الجامعية، ويحرم الأمة من مجتناها، وهكذا رأى ـ مثلاً ـ أن العباسية والمروانية وعلان بقرن واحد، ولن يروضهما في الساحة العامة، إلا شمس الأمة في شروق الغد.

ـ ٤ ـ

هكذا كان تصرف الإمام الصادق ـ مع كل الأحداث المتوالية في عصره ـ تطاوعاً مع كل توجيه ثمين تناوله من جده الإمام زين العابدين، وفيه كل علم، وكل فنّ، وكل خبر . . . وليس علينا ـ مطلقاً ـ أن نظن بأن العصر، وكل أحداث العصر، هي التي أكسبت الصادق فهماً، أو أملت عليه عبراً، أو وضَّحت له ابتكاراً في التصرف، لا بل إن كل ما قام به، كان تلبية لاستنارات أخرى أضحت مشرقة في نفسه، وهي التي أحاطه بها ـ مسبقاً ـ جده الإمام، لتكون مقاييسه في نقل خطوات الغد، من ظل العتمات المقهورة، إلى ربى الفسحات المنشورة: وفيها علم، وفيها ذكاء، وفيها قدوات تسهِّل للأبطال عمليات العبور، وللمشاة مفازات المرور.

لقد احتك الإمام الصادق طويلاً ببني مروان، ولكنه لم يجدهم أكثر من عجينة، مروانية ممطوطة من عجينة سفيانية حلَّلها له جده، وبيَّن إمام ذهنه كم في عناصرها من طحين طيِّب اللب، ومن غبار سيء الدرب، وهو الذي طاب ـ على استثناء فقط ـ مع عمر بن عبد العزيز، وساء مع معاوية بن أبي سفيان، ليستمر في مقياسه مع بني مروان!!!

وكذلك كان شأن الصادق باحتكاكه بالعباسيين: السفاح والمنصور، ولكنه لم يأخذ من احتكاكه بهما، حكماً لهما أو عليهما، إلا بنسبة ما ترجَّح به من تحليلات جده الإمام: في أن الطحين النقي والخالي من زؤان، طاب ـ على استثناء ـ في رغيف عبد الله بن العباس، وقرَّبه كثيراً ـ بالصفات ـ من جده الإمام علي، بينما، بقي على مساره بالسوء، في رغيف عبيد الله بن العباس: يخون الإمامة، ويخدع الإمام الحسن، ويمكِّن منه ـ في معركة الدفاع عن مصير الأمة ـ خصمه اللدود معاوية بن أبي سفيان! وهل سيكون أخفَّ سوءاً مع السفاح وأخيه المهصور الدوانيقي؟!!

وهكذا يبدو أن تصرف الإمام، ووقوفه الحيادي في مقابلة الأحداث في عصره، لم يكن نابعاً من حاجة العصر بوجه خاص ـ بل من حاجة الأمة

بوجه عام ـ إلى هدوء ورزانة، يجعلانها قابلة بلون جديد من حكم يبدو أنه حاصل حتماً، وليكن حسبانه عباسياً وافداً، وأسوأ من مروانيّ مولّ مع طحينه الممزوج بكثير من غبار!!!

لقد تحملت الأمة حكماً سفيانياً ومروانياً طيلة دهر! فلتتحمَّله ـ أيضاً ـ عباسياً إلى أن يغيِّر الدهر من ثقافاتها، ويزيل الأغبرة من طحينها!!! وعندئذ، فهي التي تستدعي الطالبية العلوية لاحتلال الساحة المنهوكة بالضعف والعي، والهزال، وتسبغ عليها مؤازرات تحرِّرها من المجازفات التي لا يجوز أن تحصل قبل تجهيز الساحة بأوقات الرهان.

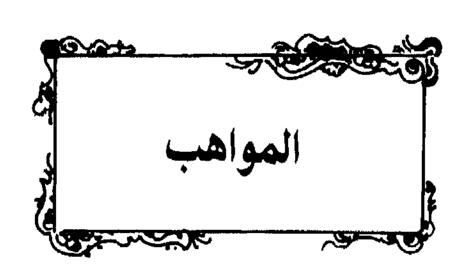
قال الإمام ذلك وهو يعني أن [أقرباءه الطالبيين المتحمسين لرفض بني العباس، والمحاولين ـ دائماً ـ القيام بثورات لإرجاع الحكم إلى الطالبيين، أكانت مع زيد الشهيد، أو مع عبد الله بن علي، أو عبد الله بن الحسن وابنيه محمد وإبراهيم... وكلهم اقتص منهم المنصور ونكّل بهم أيما تنكيل] إنما هم المجازفون بمصير لم تحن أبداً ساعته!!! أما ساعته الكبيرة، فهي التي تجهِّز ثوانيها القارعة، هذه الجامعة العلمية اليثربية الزين عابدينية، والتي ـ فعلاً ـ ستنهض بالأمة، إلى ثقافة، ووعي، وإرادة، تقرِّر بها كلها: حقيقة المجازفة، وحقيقة الضمانات، وحقيقة النهوض من الكبوات!!!

والحقيقة ـ أيضاً ـ أن الوقوف الحيادي الذي تصرف به الإمام في مقابلة المد العباسي، لم يكن جبناً تتهمه به البطولات، ولم يكن خروجاً عن الخط الإمامي الذي يطالب بتعزيزه الطالبيون، ولا دخولاً في جبهة عباسية تظلله ببعض الجاه... إنما كان تلبية لتوجيه عظيم، أصبح نهجاً، وأضحى قضية!

والقضية ـ برمتها ـ لم تعد في مجالات فهمه وإدراكه: طالبية علوية، أو معاوية حربية، أو سفيانية متداخلة بمروانية، أو عباسية سفاحية، ولا فرق يذكر بين أن يكون الاسم: عبد الله، أو يكون عبيد

الله . . . فالجميع الآن ـ عنده ـ هم طحين واحد لأمة واحدة، ومن الضرورة أن يطيب الطحين، ويصفو من الأغبرة مزجه.

وإنما الأغبرة هي السوداء، وهي التي تكدِّر الطحين، وهي بمثابة الجهل الشديد القبح، والعلم الوسيع هو الذي يمحوه من أرغفة الأمة، وهذا كله هو ما اقتنع به الصادق، وما احتوته ـ لديه ـ سبل التوجيه، وما تزاحمت ـ به وعليه ـ ألمعية المواهب.



المواهب

وتزاحمت المواهب لاحتلال شخصية هي ذاتها العبقرية التي جاءت تلبية لتوجيه عبقري يخلِّص أمة من تقهقر تاريخ، ويخلص رسالة من أصفاد تكبلها عن مداها الروحي والإنساني، وتحجزها عن أي بلوغ حضاري، ومثالي.

وإنها المواهب ـ بتوافرها الانصبابيّ في شخصية واحدة ـ صاغت من جعفرها أحدوثة لا يجيد النطق بها إلا صفّ عريض من علماء لا تتمكن من تصنيفهم إلا أمة عريقة في ظلّ حضارة من حضاراتها الأنيقة، وإنه لمجد من الأمجاد، في ظل فخر من المفاخر، أن تشير الأمة ـ بإصبع من أصابعها الهزيلة ـ إلى واحد منها اسمه جعفر الصادق، عبَّر عن تمنياتها المقهورة، قبل أن يرحل مقهوراً!!! أقول ذلك وأنا أعني: أنّ الأمة تقدر أن تنبت أكثر من جعفر، يمحضها بتحقيق جعفري يقودها إلى وصول، هذا إذا استوعبت شوقاً مُريداً، رأينا كيف سكبه الإمام زين العابدين في عروق حفيده جعفر، فالتهبت عروق جعفر بعصيرها الموهوب!

أظنني وصلت إلى ما أقصد، فالمواهب التي حازها الإمام الصادق، وصلت إليه من: توجيه الجد فأسلوب الأب ـ فعزم الذات... وليكن للقول هذا بعض تفصيل:

١ ـ توجيه الجد

ولقد تحققنا من صدق التوجيه الذي قام به الإمام زين العابدين ـ على مدى عشر سنين ـ كيف أنه كان تثقيفاً وترسيخاً في دائرة المعارف. وتشديداً على المثل الكريمة في بنية الإنسان، وأن العلم ـ وحده ـ هو الهبة الجديرة بإنهاض الأمم ومنحها أسباب الحياة. وأن الأمة التي جاءها نبيها العظيم بقرآن، لن يكون لها ـ به ـ أيّ إطلاع، ما لم تتزيّن بحرف قراءة... وطالما أن مِداد الحبر لم تغمس فيه ـ بعد ـ لا قلمها، ولا أنملها، فهي الباقية ماشية على حفافي الدروب، تتجرَّر في بؤسها، وفي ذلها!!!

لقد كان التوجيه كله شحذاً لعبقرية شديدة الذكاء، كان يراها الجد خاطرة في عيني حفيده، فراح إلى تنميتها ودفعها إلى عزم يفعل، لأن المرارة التي تذوّقها الرجل العظيم والأبيّ، بتأخير قرآن جده النبي عن بلوغ مرامه في دفع الأمة إلى مداها المشتهى، وبتجميد جده الآخر ـ علي ـ في خلوة صغيرة تيبَّس فيها، وخلف عينيه مجالات من أشعة بقيت مطموسة بين دفتي نهج البلاغة، لتبقى له ـ من ابنه العظيم الآخر ـ الشهيد الحسين، شهادة كربلائية فجَّرت دمه، لتبقيه ـ فقط ـ ذكراً عاشورائياً يحيا به الغد الثاني!!! أجل، لأن المرارة المجذَّرة في أغلفة جنانه، حرَّكت في طوايا ظنونه أملاً تتلقَّط به الأمة وتعود فتبني به حقاً ضائعاً عن قارعة الطريق! وهكذا ربط بحفيده جعفر روعة الأمل، وراح يحضِّره ـ بشوق باهر وساحر ـ بأن العلم وحده، هو رجاء الأمة التي هي حصن الفرد، ومآل الجماعة، وهي ـ إذ تتعلم ـ تخلد بالنبيّ، وبعليّ، وبالحسين، وبالتاريخ الذي ضاع، وبالحق الذي يعود فيذود عن نفسه، لأنه لم يرد أن يضيع!!!

ولقد أخذ الفتى بقوة المنطق، وبقوة الصدق المدفوع بشوق عميق لا حدود له، وراح يتصوَّر ذاته بأنه المتلقط بالعلم كله، يسكبه على الأمة

حللاً وأردية، تبرز بها إلى مفاسح الساحات، وفي يدها قرآن مفتوق من علاء، تنشره على ذاتها، أمام أمم الأرض، لتهدي به أمم الأرض!

أما الجدّ، فإنه هدَّأ حفيده إلى غد مورق صاعد، تترسَّخ فيه المواعيد، ولن يجذِّرها إلا الجهد الآتي من تحت سقوف المسجد ـ الجامعة... وها هو أبوك الباقر يستدرّها إلى الهامات تكثّفها إلى أن تمطر... فشدَّ حقويك يا بني، واسكب عزمك في عزم أبيك الصابر... والغد الكبير هو في الانتظار!!!

بعد يومين وليل طويل، غفا الإمام زين العابدين... وترك حفيده جعفر في عهدة أبيه الباقر... وترك الجامعة تحرس الدار...

٢ ـ أسلوب الأب

ولقد تبين لنا أن مهمة الإمام الباقر كانت قائمة على شقين: شق تفتيشي عن كل الفروع العلمية التي كانت أساس الحضارات القديمة التي تنوَّر بها كل العالم المشرقي، وشقّ استطلاعي عن كل مادة بمفردها، وبسطها على مائدة التعليم في الجامعة، وتفجيرها أمام الطلاب: فهماً، وتثقيفاً تنال منه الأمة ـ بدورها ـ كسباً وتصنيفاً... وبعد جهد طويل وكثيف، رجع الإمام وفي جعبته عناوين كثيرة لعلوم نائمة في صدفها، ولا قيمة لها إن لم يفتقها الشرح من محارتها إلى دنيا البصيرة. فعلم الفلك ـ مثلاً ـ كان بحاجة إلى نقد وإعادة نظر، وإعمال روية... وعلم الحساب ـ أيضاً ـ كان بحاجة إلى نقله من رقم صغير إلى دائرة هندسة... والطبّ، إلى ربطه بطاولة التشريح... وهنالك الكيمياء التي هي لعبة معادلات، وعالم محاولات، وانتقالات، وتوليدات ليس لها رقم يحصيها!

ولم يكن الباقر يقبل أن يعرض فرعاً من الفروع العلمية ـ مهما يكن وزنه ـ من دون أن يستوعبه درساً، وهكذا انصبَّ على كل مادة من المواد التي وسَّع بها رفوف الجامعة، يشبعها درساً وتفتيقاً، وكان وحده القائم

بكل ذلك، من دون أن يجد أستاذاً يسعفه، لأن المجتمع كله، في ذلك الحين، كان أمياً إلى درجة بائسة، ولم يكن يفقه معنىً مفيداً لما يسمى: بالفيزياء أو علم النبات، أو علم الاجتماع، أو الهندسة، أو الجبر، أو ذلك العلم الآخر المسمى بالكيمياء!!!

فليكن الباقر ذا همة قعساء، ولكن الهمَّ الوسيع الذي يفرضه على نفسه، هو من درجة المستحيل... فالجامعة التي يقصد أن يوسعها بطاقات العلوم، ليست ابتدائية لتأليف حكمة وتهجئة حرف، بل لتكون مدرجاً للفكر، وللروح، عن طريق الفلسفة، وعلوم الكلام، والقرآن، والحديث، والتاريخ والجغرافيا...

وها هي العلوم التي بذل الجهد الكثيف بالتفتيش عنها، تأتي ضعفاً على أبَّالة... يكفيه علم واحد منها ـ اسمه الكيمياء ـ كيف له أن يفتقه من ألغازه السحرية، وينشىء منه أية معادلة؟!

وبقي الباقر وحده، من دون أن يجد أستاذاً واحداً يسعفه ـ ومن أين يأتي به؟! وهكذا بقي وحده: يحاول التفتيق، والتحليل، وإنشاء الطروحات... من دون أن يحسب أن أباه العظيم ما ترك الأرض إلى جنان، إلا بعد أن أعدَّ له أطروحة من عبقرية أوقيانوسية الذكاء!!!

وتربَّع الجعفر ـ وعمره عشر سنين، بشوق حجمه ألف عام ـ على طراحة من ريش طاووس، قرب أبيه المغمور بالورق المنقوش بريشة من حبر... وراح ـ من استفهام إلى استفهام، ومن استلهام إلى استلهام ـ يشارك أباه المنهوك بوطآت الإلتزام!!!

وتفهَّم الجعفر، أنّ العلوم لا تُنال ولا تُفجَّر، إلا بالجهد المحفور بظفر الإلتزام... وهكذا شدَّه إلى أبيه شوق جديد اسمه الإلتزام، وهكذا ـ أيضاً ـ تذلَّل قسم وفير من الرموز المتطلبة: عمقاً بالتفهّم، وكثيراً من ممارسات، ووسيعاً وسيعاً من تحكّمات المنطق، وتبصّرات الإلهام!!!

وإنه أسلوب أبيه المتيقِّن من موضوعه قبل طرحه على مائدة الدرس، حذِقه جعفر بين يدي جده الناقش الأول، وها هو يتكامل به بين يدي أبيه الناقش الثاني، وهو يساعده في استخراج المعاني من عناوين المواضيع، واستدراجها ـ موسعة ـ إلى مفاهيمه... وهكذا كان له ـ نبوغ مؤصَّل في أي علم حصَّله، واسترفد به، ليكون ـ عن جدارة ـ أستاذاً فيه، يقوم به مع أبيه على منبر الجامعة التي أصبح فيها الآن أستاذان يشرحان الدروس، وهي بحاجة إلى طاقات من أساتذة مختصين بكل الفروع التي أصبحت وافرة في خزائن الجامعة.

بعد قليل ـ أيضاً ـ سينزح الإمام الباقر لملاقاة أبيه في المقر الأخير، تاركاً ابنه إماماً ملتزماً بذات الخط الذي سيقوم بتتميمه، وتنشيطه، بحزم مضاعف بالجهد الذي نسميه الآن: عزم الذات.

٣ ـ عزم الذات

إذا كان أسلوب الأب قد أضفى على ابنه جعفر هذا النوع من البروز الملوَّن بتعداد المواهب، فلأن الطاقات الوفيرة في جعفر، وهي الملتهبة بشوق فريد تمكَّن الإمام زين العابدين من توجيهها إلى آفاقها المطلة عليها، وهي ذاتها التي تكارمت عليها ـ بالإخصاب ـ وفرة المواضيع المطروحة في عمليات التدريس، والتنقيب، والتنقيح، مما ازدادت به جلوة جعفر، وجعلته متمكناً ليكون أستاذاً في شرحها على الطلاب في الجامعة، وليكون مثالاً لكل أستاذ تتطلبه الجامعة ليكون ضليعاً فوق أي منبر من منابرها... وهكذا كان له لموع في هذه المواضيع كلها، والتي تبسّط فيها: أكانت فلسفة، أو فقهاً، أو علم كلام، أم تاريخاً، أو جغرافية، أو علم اجتماع، أو أدباً، أو فكراً، أو ملحاً من مواعظ، أو طباً، أو تشريحاً وإحصاءً لكل ما في الجسم من عظام ـ أو بنوع من تخصيص مميز ومنقّى، خصَّه بالفيزياء والكيمياء؛ وقد اعتبر الفيزياء مصدر

الحاجات الحياتية في عالم الإنسان، أو مجتمع الإنسان، فأولاها درساً طويلاً، واهتماماً أكيداً. . ونظر إلى الكيمياء فرآها أم المعادلات التي تتوكأ عليها: الزراعات، والتجارات، والصناعات، والإختراعات، وكل فنون الحياة في مآقيها، ومراميها، ومراقيها الحاذقات. . . فحدب عليها استطلاعاً واستكشافاً، وأمّل الأمة بمواعيد غنية تقتنصها كلما اشتد بها الغرف من ملاقطها ومخازنها، أو كلما انشدّ بها الغوص إلى مغالقها ومخابئها، وكلها مليء بالدهش، وبالأسرار!!!

وإذا كان لنا أن نراقب، والمراقبة حق من حقوقنا المرتبطة بتحقيق المصير لأمة هي لنا في مطلق الحال: أطالها ـ من خمول الزمان ـ وهنٌ، أم قصدت أن تلملمها ـ منه ـ يقظات الضمير. . . أجل، فلنراقب أن الأمة هذه ـ في مصيرها الصاعد أو الهابط ـ كانت دائماً في الدائرة المثلى من اهتمامات الصادق الذي هو لحمة إمامين ما ارتبطا بالدنيا إلا لإنقاذ أمة من وهنها المزمن!!!

تلك هي الإمامة المثلثة، وفي عنقها جامعة علمية تثقيفية تحضيرية، تمتزج بالأمة امتزاجاً كيميائياً، فتحوِّلها من غياب إلى إياب، ومن خمول إلى مثول، ومن حرف إلى رقم، ومن مفرد إلى جمع، ومن حقد إلى حب، ومن يبسة إلى روضة من زهر وفوح وأريج!!!

ستفعل ذلك كله معادلات الكيمياء، في مجتمع العقل، ومجتمع الوعي، ومجتمع الإنسان! وتلك هي حبيبة الصادق: تعشّقها كيميائية تجترح ـ في الأمة ـ معجزات الوعي، ومعجزات اليقظات!!! والأمة دائماً هي الملاذ ـ في عرف الصادق، وعرف أبيه، وعرف جده المنتمي إلى العليّ، وإلى النبيّ، نبيّ الوعي، ونبي المكرمات!!!

وخفَّ الصادق بعد ارتفاع أبيه إلى سماوات، يوسع الجامعة بفرع أنشأه في حيرة الكوفة في العراق، حيث تلملم حوله تسعمائة من الطلاب الذين اشتغل بهم العلم شغله الكيميائي، وحوَّلهم من أميين إلى علماء لا

نزال حتى اليوم نفخر بأسمائهم: هشام بن الحكم، هشام بن سالم، مؤمن الطاق، زرارة بن أعين، ابان بن تغلب، النعمان أبو حنيفة، مالك بن أنس، سفيان بن عيينة، سفيان الثوري!!!

وهل يجوز أن ينسى التاريخ اسم جابر بن حيّان؟ وقد ألّف كتباً، في الكيمياء، ملبياً طلب أستاذه العظيم الصادق، باختراع قرطاس ـ له ـ لا يحترق؟!

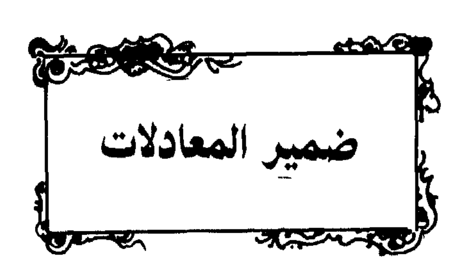
وهل يجوز أن ينسى التاريخ ـ أيضاً ـ المفضَّل بن عمر الذي أملى عليه أستاذه الصادق، مواد كتابه الشهير: توحيد المفضّل، وفيه وظائف الأعضاء، ودوران الدورة الدموية، وتشريح الإنسان، وعدد العظام في بدنه... وفيه بحث في الجراثيم، وكثير من البحوث الطبية، وفوق ذلك: فلسفة الوجود، وحكمة الوجود.

لقد كانت جامعة الباقر قائمة على أستاذ واحد، أما الآن فهي مع الصادق قائمة عليه ممثلاً بعشرة أساتذة في عدة اختصاصات: كالفلسفة، وعلم الفقه، وعلم الكلام، وعلم الجغرافيا، وعلم التدوين، وعلم الفيزياء، وعلم الكيمياء... من دون أن ننسى عالم الأدب، وحقول الحكمة والوصايا والمواعظ!

وإنه أتقن ـ بعزمه الذاتي ـ كل هذه الاختصاصات: لأن أباه الباقر فرض عليه كيفية الإتقان، تلبية لحاجات الجامعة، ذات الفروع المتعددة... ولكنه ـ فوق ذلك ـ تحسّب لحدثان الدهر وواقع الحال... وها هو يُعد للجامعة مجموعة من تلاميذه ـ وقد أحصينا عدداً وفيراً منهم ـ ليحلّوا مكانه ـ بعد ارتحاله ـ في مرتبة التعليم... وهكذا تبقى الجامعة، في إطراد نموها، تحضِّر للأمة بلوغاً متنامياً بالوعي، وحقيقة الإدراك، وسلامة الوصول إلى ما هو مرسوم، وإلى ما هو منتظر!

جلّ ما في الأمر: أن هذا البحث ليس لأن يُحسب طويلاً قليلاً، أو قصيراً يسيراً، بل لأن يعتبر تنويهاً عن عبقرية صادقة وملتزمة بخط واضح

الخطوط في إيمانه بالعلم متكأ لأمة يرفعها إلى سوية مرموقة تجعلها إنسانية حضارية تحترم نفسها، وتحقق قيمة الإنسان ـ وإنه الإمام الصادق ـ فلنصدق معه بالحكم، ولنعتبره قمة من القمم، ولنتمنَّه دائماً ضمير المعادلات.



ضمير المعادلات

وليست القضية محصورة في عملية من عمليات التمني الذي اختتمت به الصفحة السابقة ـ منذ قليل ـ وهي تستدعينا إلى اعتبار الإمام الصادق قمة من القمم الفكرية، والروحية، والإجتماعية، والعلمية، في عالمنا الإنساني، مع التشديد علينا بأن نتلمّسه ـ فوق ذلك كله ـ ضمير المعادلات. . والحقيقة أن في الشقين من هذا القول تقصيراً في التعريف والتحديد، لا يطالان الإمام بالحكم له، أو الحكم عليه. . . بل يتهمان ـ بالأحرى ـ القلم بعدم التوضيح: فالإمام الصادق ـ في عالمه الواسع ـ هو أحقُّ، بالتأكيد، من الاعتبار. . . ليكون أغنى من أن نتمناه يحوز، وهو الحائز. . . وكان الأجدر بنا أن نقول: الإمام الصادق قمة بحد ذاته، وإنه ـ فعلاً ـ ضمير المعادلات. . . وهكذا ننزِّهه من استجداء «الاعتبار» ومن استجداء «التمني»!!!

صحيح أن كلمة «المعادلات» إنما هي اختصاص ملصوق بعلوم الكيمياء التي تعيّن مقادير أخذها ـ بالرقم المضبوط ـ من كل مادة معينة على حدة، فتمزجها بغيرها المعيَّن في وزنه، فإذا بالناتج من عملية المزج، هو حقيقة معادلة باسم ولادة جديدة لمولود آخر أَمَّ الوجود. . . كالماء ـ مثلاً ـ والذي هو ولادة مؤلفة من امتزاج جزء واحد من أوكسيجين، مع جزءين من أيدروجين. . . فمن هذه المعادلة المضبوطة هو الماء.

ولقد أُخذ الإمام الصادق بعلوم الكيمياء، إذ اكتشف فيها كلَّ ما هو مندرج في عوالم الوجود المؤلَّف من أربعة عناصر: التراب، والماء، والهواء، والنار. . . وتلك هي أساس في علوم الفيزياء التي كان يقول بها أرسطو، وكل العلوم القديمة اليونانية الأيونية، والتي هي كلها ألعوبة الكيمياء في تأليف معادلاتها غير المنتهي على الإطلاق، هذا بقطع النظر عن أن الإمام الصادق، ذهب إلى أن التراب ليس عنصراً بسيطاً قائماً بذاته، بل إنه مؤلَّف من عدة عناصر ممتزجة، وإن هذا الامتزاج هو الذي يؤلف معادلة وجوده. . . ورأى أيضاً ـ بعد أرسطو بألف سنة ـ بأن الهواء كذلك، ليس جزءاً وحيداً وبسيطاً، بل إنه حاصل معادلة مؤلفة من عدة عناصر، ومن أفعلها عنصر الأوكسيجين القوي الحرارة، وهو الذي يؤلف ـ في جسم الإنسان ـ معادلة حياته بعملية التنفس، وإذ تختلُّ معادلته، يموت الإنسان اختناقاً. . .

على أساس [أن الوجود برمته: ـ أرضاً، وهواءً، وامتداداً غير منته من سحاب ـ هو أمزوجات كيميائية لا تبتدي إلا من حيث لا تنتهي في تفاعلاتها التجددية التعادلية التي هي حركات الكون في الأهبة السرمدية المتغذية من ذاتها بذاتها في المدى المؤهل بالعناصر] رأى الإمام الصادق أن الوجود كله ـ ولن ينتهي ـ هو حاصل معادلات ـ ولن تنتهي كذلك ـ مهما تقلَّب بها التركيب، أو تلاعب بها الوزن، أو تنوعت بها الحركة، لأنها، في النتيجة الحتمية، هي تفاعل تمازجي انصهاري، تقبل حدوثه الحاجات الحياتية المتوفرة من ذاتها، وتتجنَّبه، وتهرب منه، إذ تتلمس فيه نوعاً من أذية!

ومن أهم ما رأى الإمام، نقل المعادلات من عالم الفيزيائيات الملموسة، بما لها من أجسام أو أحجام، وأوزان، وألوان، إلى عالم الروحيات غير المحسوسة، والتي هي قيم فكرية، وروحية، وخلقية، وجمالية، ولا يعيش بوهج معادلاتها إلا المجتمع المجنَّح بالحق،

والعدل، وماهيات الجمال ـ وكلها عناصر روحية تؤلف معادلة المجتمع الكريم، في جو من العقل، والعلم، والفهم، والوعي السليم!

إنها الكيمياء، الثانية المنبلجة ـ عند الإمام الصادق ـ من الكيمياء الأولى التي هي: مزج تراب بهواء، مع ماء، مرة يطفىء الحريق، ومرة أخرى يزرع في الجليد جمرات الحريق. . . وإنها كيمياؤه ـ على كل حال ـ تفرَّعت من الأولى، على اتصال بها كأنه هو الالتحام!!!

وأولاً وآخراً، ليس للأمة ـ في نظر الصادق ـ إلا الكيمياء في جميع معادلاتها الفيزيائية والروحية، سواء بسواء. . . فالفيزيائية تعلمها كيف تضع الخمير في الطحين، وكيف ترويه بالماء، ومتى تسلمه لأصابع النار، لتكون لها معادلة الرغيف. . . وكذلك الفيزيائية تعلمها معادلات لا تحصى في: الزراعة، والصناعة، والتجارة. . . وفي العمارات، وإنشاء البيوت، والقصور، والحدائق، والقلاع المحصنة بأجهزة الدفاع عن أمة ووطن.

أما الروحية، فإنها تعلمها ـ بالمقابل ـ غوصاً في عالم النفس، وعالم الفكر، وعالم الحق، وكل مساحات الجمال. . . وتعلمها الفنون بالوصول إلى حقيقة الحرف، وأصدقية الميزان، وتعلمها كيف تبني الصحة من مفصل العلة، والقوة من هذيان الضعفاء، والغنى من مجاعات الفقراء، والبطولة من غطرسة البغاة، والإيمان من عمى الكافرين الملحدين!!!

أما السياسات الرشيدة، فهي فن آخر، تؤلف معادلته سلسلة الحاكمين، ولو أنهم المتطورون من سفيانية إلى مروانية، إلى عباسية أدهى من الاثنتين ـ فإنهم لم يتمكنوا بعد، من تغيير عناصر المعادلة!!! فهي: ظلم، وكذب، وتعد، من دون أن يملِّحها، لا عنصر من صدق، ولا ومضة من نعمة. ولا حرف واحد صادق، تهجَّأت به آية من سورة، أو خلجة من رسالة!!! وهكذا، فإن في معتقد الظلم والزيغان عن الصراط

المستقيم: أن في مضاعفة الأوكسيجين في صلب المعادلة، من أربعة إلى ثمانية، تمتين المعادلة، وتقوية التنفس، في حين أن التنفس ذاته هو المحروف بأوكسيجانه المحدود، وسترفضه الأمة من متنفَّسها، عندما تشعرها به حقيقة العلم، ومستوى الفهم... ولن تحرق النار إلا موقدهاالآثم، وسيكون مصرع الظالمين هو الوخيم!

تلك هي كيمياء جعفر الصادق: ترتب الأمة على معادلاتها الصحيحة، بانتظار أن يفعل العلم الذي يركزه ـ هو ـ على مقوماته المرصودة... وعندما تأخذه الأمة ـ في أجيالها الصاعدة ـ إلى خوانها المنظوم تكون المعادلات الصحيحة هي الفاعلة فعلها في التنفس المنتظم... وإن الغد الكبير ـ عند الإمام ـ سيكون المنتظر.

الإنتاج الثمين يلبي روعة التوجيه

والإنتاج الثمين؟ ـ فعلاً ـ إنه الرائع، وكم يستحق من حلاوة الشكر أستاذنا الكريم، فضيلة الشيخ باقر القرشي، يجلِّده في كتاب عرض صفحاته ستماية وست وخمسون، ويقدمه لنا ـ صرفاً ـ وحاملاً ـ فقط ـ أسماء وعناوين أولئك الذين تتلمذوا على يد الإمام الصادق، وأبدعوا الإنتاج الثمين!

ما اقتطع الاسم والعنوان من هذا الكتاب أكثر من سطرين أو ثلاثة، إلا نادراً مع قلة كان لهم إنتاج فكري وسيع متميز: كجابر بن حيان ـ مثلاً ـ أو زرارة بن أعيَن، أو هشام بن الحكم... ولكن ما ضخَّم الكتابة لهذا المقدار من الصفحات، هو عدد هؤلاء المنتمين إلى جامعة الإمام الصادق، والذين بلغ تعدادهم حدود الأربعة آلاف!!! فتجديداً من الشكر الحميم نوجهه إلى فضيلة الشيخ باقر شريف القرشي: يخصص جهداً مرقوماً، بقصد وغاية، في جمع أسماء علماء، رفعوا قيمة العصر الصادقي، وزينوه بوعي ملون بنضج هو كل ما تتمناه الأمم، تلفلف به كل ما تطمح إلى أن تنتجه نخيلاتها من تمر!

والحقيقة التي هي افتخار بذاتها، تلوح لنا الآن في الإنتاج الثمين المكثَّف في اللائحة المدرجة في سجلَّات الجامعة العلمية التي قصد الإمام زين العابدين إعادة فتح بواباتها في يثرب، منتدباً إلى منبرها ابنه الإمام الباقر، ومحضِّراً حفيده جعفر، تحضيراً مميزاً، لمساندة أبيه في الميدان

الكبير. وقد رأينا الإمام الباقر رحّالة في استجهادية التفتيش عن كل مادة علمية نطقت بها حضارات أجداده القدامى، وزينوا بها تراثاتهم، وزفوها إلى اليمين وإلى اليسار: علماً، وحقاً، ووعياً... ثم لوى بهم الدهر ـ لسبب ماتداركته الفطنة آنذاك، فإذا بهم إلى تلعثم ملطّخ بعيّ أخرس رماهم فيه كسل قصَّر بهم عن متابعة الإلتزام بالتراقي على المدارج، من دون أن يحسبوا أن التوقف ذاته، هو رجوع إلى الوراء الذي هو تضخم في الهبوط الحزين!!

ولقد رأينا أيضاً المحضَّر جعفر هبوباً عطشاناً إلى ميدان تتخاصر فيه صفين وكربلاء، بينما الأمة كلها هي الشلو النائم في عتمة لا يضيؤها حرف من كتابة، ولا سهم من قراءة!

ذلك هو واقع الدراسات التي تبصَّر بها الإمام زين العابدين، والتي رأى نتائجها الأليمة في مسيرة الأمة التي تعصَّرت وأنجبت نبياً منها يلملمها ويعيدها إلى الجادة!!! ولكن الصواب المدعوة إليه الأمة، ما أخذت منه إيجابية معروف بلا سلبية منكر، والسبب الوجيه أن الأمة ـ بالذات ـ لم تعد تعرف كيف تنجي معروفاً من قبضة منكر!!! وهكذا كان لنا أن نرى الإمام زين العابدين غارقاً في جدِّية التفتيش عن أجدى السبل التي تنشل الأمة من مغارقها، وتستعيد مغانمها المهدورة، وقد أمَّلها بها، نبيها، ووليها، وخطَّ أمامي مرصود الخطوات واليقظات، لا غنى عنه في ضبط مسيرات الزمن إذا اختلَّت فيه بعض ثوانيه!!!

ولقد رأيناه ـ هذا الإمام المثلث الإمامات، والموحَّد القصد، والنهج، والتنفيذ ـ يقرر محو الجهل من جو الأمة بإشاعة العلم الموسع، يأخذ به جيل ويصله بآخر، وإذا بالأمة على المدرج الصاعد بوعي جماعي يحقق المعجزة التي هي قيام أمة من كبوتها، إلى حضارة علمية، روحية، إنسانية، يتحقق فيها وجود أمة، ووجود إنسان.. وها هو التحقيق المرسومة له المقاصد والمناهج، والغايات، وكل آيات التوجيه المصبوب

في معدن النفس، وفي مسامّ العبقريات، يأخذ جهداً فيتكامل به، ويصله بآخر، ابتداءً بالجدّ، ووصولاً آنياً إلى الحفيد، على أمل وشوق متلازمين بأن تصاعد الأجيال يمتن روابط الانتقال بالأمة إلى سعة حضارية تزدهر بها آمالها، وأحلامها بكل غد بهي ورشيد!

ولكن الأمل والشوق اللذين هما غمرٌ في سقوف الجامعة، وعلى جدرانها المصبوغة بأريحية زين العابدين، وبمجهودية الباقر المتفجرة من خلف منافذ عينيه، وبصدق الجعفر المتمادي بعمليات الخلق والإبداع، إنما هما الآن المالئان جو الجامعة، وبالتالي ردهات الجامعة، بالإنتاج الثمين الذي لا يمكنه أن يزول من معتمدات الأمة في طموحها المستمر إلى تحقيق منير!

وها هو التحقيق بادياً للعيان: فالجامعة العلمية المرسومة لنشر العلم ومحو الجهل، قد بدأت فرداً واحداً مشدوداً بعصب واحد مفجور من هالة شوق، وعدسة عين، وسلك بصيرة... إنها الأقانيم التي تتوحَّد بها ـ دائماً ـ مثلثات الكون. في إنجابها ـ كل مرة ـ قدسية الروح من ثقب عين ومدى نور... ويا للروح تلتهم زين العابدين، فيهتف بابنه الباقر، ويرشقه بحفيده الصادق، فإذا بالجامعة العلمية في يثرب: اتصال شوق بشوق، ورؤيا برؤيا، ومنال بمنال... وإذا بها: وعدٌ يتجسد، وعلم يتجدد، وجهل يتبدد، وحينونة كانت تمشي ـ منذ حين حزين ـ على اثنتين، وإذا بها ـ بعدما يضاهي سبعين سنة ـ تعمر بها صدور واسعة وخافقة بالعلم، والفهم، وروضات البيان، تنزِّل أسماءهم الجميلة في سجلاتها ـ كتلاميذ تخرجوا منها ـ جامعة علمية هي الأولى في يثرب العرب، ولا تزال عائشة حتى اليوم ـ بذكراها ـ هذه اليثرب!

أربعة آلاف تنزِّلهم جامعة في لوحة تسجيل، تلملمهم فروع علمية ـ في عصر كان يجهل حروف القراءة ـ إلى فقه وأدب وفلسفة، وإلى تاريخ واجتماع ومخططات جغرافيا، وإلى حساب وهندسات ورسم خرائط،

وإلى زراعة وتجارة وصناعات، وإلى فيزياء وكيمياء ومعادلات، وإلى تأليف مئات الكتب والمجلدات والمباحث والفلسفات، مع إبداء الرأي وتنوير الأذهان بالمناظرات... إن هذا كله ـ لعمري ـ يركّز مجتمعاً علمياً في مدينة علماء، وإنه ـ بدوره ـ جزء من الإنتاج الثمين الذي بدأت تتذوقه الأمة في احتكاكها بأنوار الذات!!!

وبدلاً من أن لا تجد الجامعة من يلقّن فيها الدروس إلا واحداً هو الإمام زين العابدين، ولا أحد يتمكن من الحلول مكانه إلا ابنه الإمام الباقر... ثم يغيب الباقر مختنقاً من كثرة الإرهاق، فلا تجد الجامعة من يملأ فيها فراغاً أصبحت تتنكّر له سقوفها والجدران، إلا فرداً واحداً ينشد إليها كأنه الفارس النمرود الوافد من خلف الرمول بفيلق على ألف حصان... وها هي الجامعة ـ وقد صدقت فيها العبقرية النابتة من خضم الأحلام والأشواق ـ تصعد بها الحبّة إلى سنبلة، والسنبلة إلى بيدر تموج فيه أربعة آلاف سنبلة... إنه عنفوان العلم في تناسله في جهد الأمة، تتلقفه وعياً نامياً من ظلٍّ إلى بحبوحة نور، ومن وحدة مسكينة كعدسة من حنطة مزروعة في تربة من فيزياء، تتناولها إصبع من كيمياء إلى معادلة من معادلاته السخية، تتألف منها مائدة مليئة بالحساء!!!

فليكن القول هذا كأنه شكل من مجازٍ يضفر له الخيال زناراً من ورد، وجديلة من طيلسان... غير أن الكتاب هذا، والذي هو لسان من معادلة مزجت القرآن بنهج البلاغة، لتكون الصحيفة السجادية حصيلة هذا المزج في ثوب جديد، إنما هو المتناول ـ أيضاً ـ صاحب الصحيفة السجادية: يزرع شوقه في صدر ابنه الباقر، ويُروِّيه بعبقرية من جهد وصدق، هي المتجلية ـ كالنور ـ في عزم الحفيد، لتكون الجامعة العلمية في يثرب، نتاج المعادلة المفسرة بأربعة آلاف تنديل تستضيء بهم الأمة في يثرب: وها هي الجامعة ـ بالذات ـ وقد كانت تقسم الأستاذ الوحيد فيها إلى عشرة من الاختصاصات، فيكون مع الصباح: أستاذ فلسفة، وأستاذ فقه، وأستاذ تفسير في علم الكلام، لينقلب، عند الظهيرة، أستاذاً

في شرح مواد الحساب، فالتاريخ، فالجغرافيا. . . ثم إلى توسع في علوم الفيزياء بما يتبعها من اهتمام بالطبابة وصحة البدن. . . ليكون له ـ مع هبوط المساء ـ اختلاء بعلم جديد اسمه: سحر الكيمياء وهو الذي سيكون له شأن في أفانين المعادلات، ضمن أنابيب سيختفي فيها مارد أبكم، ويطلع منها مارد أعلم، لا يتكلم إلا بالمستجدات. . .

أجل، وها هي الجامعة تلك ـ وقد كانت بأستاذ فرد ـ أكان الإمام زين العابدين، فالإمام الباقر، فالإمام جعفر الصادق. . . لنكون اليوم آلافاً أربعة، تتوزعهم الإختصاصات، ويلبونها إذا احتاجت إليهم في مدى التدريس: فهشام بن الحكم، هو لها عَلم من الأعلام، في الفلسفة وعلم الكلام، ومؤلفاته البالغة ستة وعشرين، تشهد له بسعة العلوم. . وكذلك هشام بن سالم، ومؤمن الطاق، ومحمد بن عبد الله الطيار. . .

أما زرارة بن أعين، ومؤلفاته تناهز الخمسين بعد المئة، وكلها يشهد لزرارة بأنه مكتبة علمية بحد ذاته، وبأنه زينة الأعلام، مع أبان بن تغلب مؤلف كتاب معاني القرآن، وكتاب القراءات، وكتاب الفضائل، وكتاب الأصول في الرواية، وكتاب غريب القرآن. . . يسانده ـ من الطرف الثاني ـ علي البجلي المعروف بمؤمن الطاق ـ يؤلف كتاب الإمامة، وكتاب المعرفة، وكتاب إثبات الوصية، وكتاب الرد على المعتزلة، وكتاب إفعل ولا تفعل. . . أما النعمان أبو حنيفة، مع مالك بن أنس، وسفيان بن عيينة، وسفيان الثوري. . . فإنهم أعلام بارزون، أغنوا العصر، والعصور التالية بعلوم الفقه، وتفسير القرآن.

يبقى جابر بن حيَّان، والمفضَّل بن عمر. . . فإنهما معادلتان أخريان، صاغهما الإمام الصادق من مجهود عمره: في الإستغراق، والإستطلاع، والتنقيب عن كل علم، وكل جديد، وكل مبتكر. . . وهكذا كان جابر بن حيان ـ بين أصابع أستاذه الصادق ـ مفتاح البوابة الكبيرة المطلة على الدنيا الوسيعة المشحونة بكنوز المعادلات، واسمها العظيم

هو: الكيمياء بنت الألوهة، وبنت العقل، وبنت الإستنباط والخلق والإبداع، وبنت الجديد الطالع ـ من فوهة الإمتزاج، والإنصهار، والإندغام ـ إلى وحدة أخرى تنسى أنها المشتقة. . .

١ ـ جابر بن حيان

وركز جابر بن حيان كل اختصاصه ضمن خمسمئة رسالة تبحث في تأسيس الحركة العلمية، وعززها بكتاب متفرد في علم الكيمياء. . . ولقد وثق أستاذه الصادق بمواهبه العلمية، مما جعله يتمنى عليه أن ينجز له قرطاساً لا يحترق، ولقد لبَّى التلميذ أستاذه بقرطاس وشَّاه الأستاذ بالكلمات التي تألف بها كتاب جديد له، وألقاه في النار ولم يحترق.

والكيمياء ـ بالذات ـ ما تعشَّقها الإمام وغاص إليها غوصة المشتاق، إلا لأنها مثله قوة حركية في مفاعل الذات، لتكون ـ بدورها ـ أم المعادلات، وأم المبطنات، وأم الاستنباطات: كالفلسفة، يستنزفها العقل من سجَّادات التأمل، فإذا هي منطق ملتهب بذاته، يتفرع منه: فقه، وعلم حديث، وعلم تفسير، وعلم اجتماع، وعلم بيان!!! وهكذا انشدَّ إليها الصادق، بذات الشوق الذي انجذب به إلى دومة الفلسفة التي تلحم العقل بعين البصيرة، وتوسِّع الأذن بالنأمات المثيرة!

وكان له ـ في مهمة الكيمياء ـ نظريات، واقتباسات. . . ومن أشهرها: أن النحاس هو فضة تلهَّت عن ذاتها، فنست معادلاتها!!! وما سمع جابر هذاالقول، حتى اجتهد بوضع معادلة لمعرفة طبائع المعادن، وسماها: «علم الميزان»، وطمح إلى تحويل المعادن الخسيسة إلى ثمينة ـ كالنحاس، إلى فضة، وإن صح الطموح، فأيضاً ـ من جديد ـ إلى ذهب. . . وراح كذلك يجرِّب تحضير حامض الكبريتيك بتقطيره من الشبه، وسماه: زيت الزاج، وكذلك حامض النتريك، وماء الذهب، والصودا الكاوية، وأضاف محلول ملح الطعام إلى محلول نترات الفضة فكانت له معادلة: كلورود الفضة. . . ولقد كان في الكوفة يدير الأكاسير

المعروفة اليوم ـ بالراديوم ـ كأحد الأجسام المشعة، وكان جابر يعتبر الإكسير سراً له دخل في مجمل الأعمال الكيميائية، ولقد وجد العلم الحديث أن الإكسير الذي هو الراديوم، يؤدي إلى قلب عنصر المادة، وتحطيم الذرة، والوصول إلى إنتاج القنبلة الذرية... وذلك ما حصل ـ فعلاً ـ سنة ١٩١٩.

ولقد رأينا ـ أيضاً ـ أن لهشام بن الحكم، وهو من أنبه تلاميذ الإمام الصادق، نظريات علمية من هذاالنوع الجابري، في جسمية اللون، والطعم، والرائحة... وجسمية اللون تعني أن اللون مؤلف من جزئيات صغيرة لا تحصر، تجتاز الفراغ، والأجسام الشفَّافة: فللضوء جزئيات خرَّاقة تتأثر بها العين... وللرائحة جزئيات متبخرة من الأجسام، تتأثر بها الغدد الأنفية، وللمذاق جزئيات تتأثر بها الحليمات اللسانية... ولقد بحث فيها ـ وتثبَّت من صحة وجودها ـ العلم الحديث؛ ومن هنا يمكن القول: إن الإمام جعفر الصادق كان أساساً في عمل الكيمياء، وركيزة في معالم الحضارة والتقدم التكنولوجي.

٢ ـ المفضل بن عمر

وإذا كان العظيم جابر بن حيان ضمير المعادلة الكيمياوية التي أخرجها الإمام جعفر الصادق: من ماهية التركيب إلى خاصية التوضيب، ومن فرضية المزج، إلى واقعية الدمج، وبالتالي: من أمثولة صغيرة اسمها الكيمياء إلى أحدوثة كبيرة تملأ الكون بالمعجزات!!! فإن العظيم الآخر ـ المفضَّل بن عمر ـ هو ضمير المعادلة الإنفتاحية التي كفكف بها الإمام جعفر الصادق، تلميذه الثاني ـ ابن عمر الجعفي الكوفي، وجعله ـ بها ـ: حركة، وعيناً، ولساناً، أو بالأحرى: مدى، وعلماً، وبياناً.

لقد تفوّه النعمان أبو حنيفة بمعادلته المشهورة ـ وهو تلميذ الإمام الصادق على مدى سنتين اثنتين: «لولا السنتان، لهلك النعمان!» وكأني

بالمفضَّل بن عمر يهتف بدوره: ـ «لولا الإمام جعفر، أي معنى لابن عمر؟!» وهكذا فليكن لنا مثل هذا التبسط بالقول:

ولد المفضَّل بن عمر لحظة وقعت عليه عين غوَّاصة في كنه السجايا الإنسانية، فاكتشفت في خلية تلميذ له دنياً من براءة، ليس فيها إلا صفاء وبهاء، ووجه من بياض ونقاء، وإمعان في صدق، وكره لكل ما هو كفر ورياء... فقال في سره: ـ وأين أجد أميناً مثله؟ أسكب على صفحته النقية الأنموذجية، كل ما تتمكن ذاتي من بثه؟... فلنتلقَّف ـ هذه الصفحة التقية ـ بثّي... ولنتلقَّط به سحاياها، ولتنقله بثاً على الملأ ـ ولا فرق: أكان بلساني أم بلسانها ـ علما، وحقاً، وبياناً!!

وراح الإمام ـ وهو الطافح ـ إناؤه ـ بالحق، والعلم، والبياذ ـ يملي على تلميذه المفضل، وهو الموازي، في حسبانه، الأربعة آلاف من تلاميذه، على أن يكون ـ وحده ـ التلميذ المنقَّى، يأخذ العلم، وينقله ـ كما تقبَّله ـ صافياً ومرزوماً في علبه... لأن الأمين الصادق في أخذه هو الأمين الصادق في نشره، ولأن المولع بالحق، بغير الحق لا يولع.

ولم يولع الإمام بتلميذه المفضل، إلا في لحظة واحدة رآه فيها متبرّماً ومتململاً من كفر رجل مشهور «بابن أبي العوجاء»، وهو إمام السلاحدة الذين يتباهون بالقول: بأن الدهر هو مدبِّر العالم! وفي لحظة سريعة، ولكنها بديعة، أدرك الإمام أسراراً وأسراراً في تململ تلميذه ابن عمر.. وقرأ في عينيه العائمتين بالإيمان الصامت النابض بالبراءات، أن خلف الجفنين الحائرين في خفقهما، بصبرة أخرى تحاول أن تتفجر بالإنارة، ولكن لساناً طائعاً لمرونة الحرف، لا تجده طيّعاً خلف شفتي فتاها!

أجل ـ ومنذ هذه اللحظة الفسيحة ـ بيقينها، وبمظانِّها ـ راح الإمام يملي على تلميذه المحبَّب والمفضل، كل المواد الشفيعة، والتي سيتنشط بها لسانه، ويتعزَّز بها ـ أيضاً ـ بيان، من دون أن يجوع كتابه «توحيد المفضَّل».

وبقي الإمام ـ من بداية تلك اللحظة الأبدية ـ يملي ـ وبقي التلميذ ـ منذ تلك اللحظة الأزلية ـ يتذوق دومة ما يُملى عليه، كأنه من السحاب الذي لا تنقطع ميازيبه!!! وهل كان المملي غارفاً إلا من فضاء؟ وهل كان ـ المملى عليه ـ أقل من لحاء: يمتص كل ما تتكارم به أنداء السماء؟! وتلك هي الحياة في رجائها المثمر، نطق بها الإمام الصادق، غرفاً من ميازيبها الثرية، وتلقَّاها المفضَّل ـ من ممليها ـ كأنه أمل الشجرة: تمتص عصير الحياة، فتورق، وتزهر، وتثمر غصون الشجرة!!!

فليكن في القول هذا كثير من طباق، إلا أن المفضَّل ـ ولا فرق أكان ابن جُعفي، أم كان ابن نُجلي ـ هو سر الطباق، وومضة الأطروحة، ويبقى الإمام وحده ـ في إطار الدائرة ـ تعبيراً عن مدار لا يجوز أن تتوقف فيه حركية الدائرة، وتلك هي القضية، أو بالأحرى، حقيقة القضية التي ألهبت عبقرية نادرة المثال، وجعلتها لولب الدائرة.

ولقد تلمَّسنا عبقرية الإمام جعفر، في هذا الكتاب القائل فيه على قدر ما أوتي من بيان، كيف كان شوق جده الإمام زين العابدين يصوغ منها ـ بالتوجيه الحثيث، والدفع المبارك ـ تياراً فاعلاً، تتحرك به أمة، وتنتعش قضية. ولقد رأينا ـ أيضاً ـ لولبية الشوق يؤججها فعلاً، وينشطها منالاً، الإمام الباقر، بإحاطة لجامعة في يثرب بمناهل العلم انكباباً جهيداً على تفجيرها وتوزيعها على الأمة وعياً واطِّلاعاً. ولمحنا ـ كذلك ـ الإمام العبقري المشار إليه بالسبابة المثلى، كيف كان ـ بتلقفه المميز ـ يتناول القضية إلى بساطه الأحوى، ويُسبغ عليها فنوناً فنوناً من بدائع الإخراج، وصنوفاً صنوفاً من الإمدادات الحياتية والمناعية ـ سواء بسواء ـ.

وإنما القضية التي احتجز لها بكل ما أوتي من عقل، وزخم، ووفاء، هي ـ بالذات ـ / الأمة/ أمته العربية التي كانت ـ في مدى سابق من أمدائها، حقاً، وعلماً، وانطلاق حضارات!!! ثم التوى عليها عصر النهار، فذابت مقاديرها وعص كفَّها ذل أجرب، حاول أن ينقذها منه جَدٌّ

له ـ نبي ورسول ـ وجدّ آخر ـ علي ـ كأنه سهم من رسول!! ولكن الإنقاذ لم يتأكد، لأن الجهل ـ لا العلم السني ـ كان البارز فوق الطلول!!!

وحاولت الإمامة المثلثة، وعلى رأسها الإمام زين العابدين، تعميم العلم بكل فروعه الموفورة، تنال منه الأمة ما يكشح عنها الليل، ويعيضها بوعي يؤكد لها عهداً مضيئاً... وهكذا هي الأمم، في حظوظها المستريحة، أضاءت لها المعارف الدروب المعتمة، وأوصلتها إلى الدأب المنتج: عملاً، وزراعة، وصناعة، وتجارة، وحقاً وسيعاً... وكلها نشاطات فهيمة، تشغل العقل، والروح، والإرادة، بالوصول إلى المحجّات النبيلة، لتكون ـ بمعنى آخر ـ تنجية من مجاعات حقيرة يولّدها الفقر الذي هو حصيرة الأوبئة، وكل العاهات والأحزان المجرمة!

وانصبَّ الإمام على تنمية العلم بعبقريته الفذَّة.. ولقد لمحناه جمَّاعاً منه، على غير ارتواء، مما جعله دائرة معارف على تفوق نادر المثال... كأن المطلوب منه هو تخليص الأمة من مضنياتها ـ وهي الكثيرة على غير عد ـ وإنه لم يوجد أحد سواه، في تأمين الوصول إلى الغاية المرجوة، وسد الفراغ الهائل... وهكذا صمَّم، وهكذا لبَّى، وهكذا أراد أن يكون في ملء الفراغ: فكان فيلسوفاً بكل ما تفرع من صدر الفلسفة، كالفقه، وعلم الحديث، وعلوم التفسير ـ وعلم الاجتماع... وكان متضلّعاً من كافة العلوم: فأحصى على الفيزياء كل إنتاجاتها من شجر وثمر وخضار... وكل ما تخرجه من حبوب وبقول، يقتات بها الإنسان والحيوان... وراح إلى الحساب يهنئه على صحة أرقامه في ضبط الهندسات... وكذلك انصرف انصرافاً أخَّاذاً إلى عالم الكيمياء: يفتِّق أسرارها في استطلاع المعادلات، وكان له انجذاب إليها، لأنها ـ في نظره ـ أم الجديد، وأم المبتكرات، والإختراعات، والصياغات، والتلبيات... وهي الركيزة في احتياجات الأمة، إلى أي تطوير ينقلها من ركود إلى حركة إنتاجية تكون ـ فعلاً ـ ماهية إبداع: وخلق، وإنماء.

أما الطبابة، فلم يحسبها الإمام - في المجتمع - إلا ضرورة فاعلة في تنشيط الصحة في الأبدان التي هي الركن الأساس في بنية الأمة القوية بصحتها الجسدية المترابطة: بالعقل، والروح، ومدارج الأخلاق... ولقد ثلَّث اعتقاده: بأن العقل السليم، والروح السليم، والخلق السليم - هي كلها - في الجسم السليم... وتلك هي القضية في مبدأها العام والشامل: صيانة الأمة، لتكون سليمة بصحتها، وبالتالي، بعقلها، وروحها، وأخلاقها... فيكون لها التحقيق المجلسها في مركز القيمة المحررة من الذل والبهتان؛ ولن يكون لها ذلك إلا بتحقيق الصبابة التي لفَّه بها جده، وأبوه، وواقع الأمة الذي هو جهل، وذل، وحرمان... أما الصبابة تلك فهي التخصص الكامل في محو الجهل من ساحة الأمة بتعميم العلم الوسيع، وجعله امتداداً شاملاً كل مآتيها، وأجيالها، من دون أن يكون له انقطاع عن مداركها، ومعالمها، فتعيش به كأنه: هواؤها، ونسيمها، ولحمها، ودمها، وعظامها... ويكون منه: قوتها، ومناعتها، ورسوخها في الحق، وفي كل هنيهات الجمال!!!

(إيمان قوي، في ظل منطق بهي، أُخذ به جعفر، على شغف موجَّه إلى تحقيق ما انتدب إليه - ضاعف فيه كل ثقل لكل موهبة مزروعة في حناياه الكريمة، فانصبَّ، كأنه قالب من فولاذ، وبلورة من بصيرة، على التهام العلوم واستكمالها فاعلة في كل خلية من أجهزة كيانه، على ألا يتناول أي فرع من فروع العلم الذي اعتبره - كله - وحدة في نطاق المعرفة التي هي إطار الكون في أنباض الحياة، إلا ويفتح له - باباً إثر باب - على استزادات واجتهادات، لا يتوسع ويتكامل - أبداً ومطلقاً - إلا بها أي باب... ولن يوهي المعرفة - في تقدير الإمام - ويُخفِّف من تراسلات أشعتها، إلا الاكتفاء بها - اسماً - من دون الاحتكاك بها حساً يؤلِّقها نوراً ودفقاً، ويستزيدها بهجاً ووهجاً!

والمعرفة - أيضاً - في خلد الإمام: ما أروعها تشبه الكيمياء في

اشتدادها إلى كل ما يخصبها، ويوسِّع معالمها. . . فعلم ـ وهو فرع من فروع المعرفة ـ ولو إلى احتكاك بذاته، يؤلف شرارات أخرى تستضيء بها شهوة المعادلة: كصبِّك قربة من ماء على تنور من لهب، فالنار في ثورة جديدة تثغو بها أُهزوجة الحطب. . . ومعنى ذلك، أن المعرفة هي احتكاك بذاتها، وبكل فرع من فروعها العلمية التي لا تحصر، في علبة التوهيج والتوليد. . ولا يجوز إلا إدامة الاحتكاك، بشكل أو آخر، ليتم، أبداً، التجديد، والتوليد!).

أحببت أن أشير بين هلالين وسيعين، إلى بعض المحرِّضات الفاعلة في زخم الإمام، على الاحتكاك الدائم بمصادر العلوم، والاستزادة منها ـ وها هو لا يقبل إلا دائماً أن يستزيد، فلنراقبه ـ مثلاً ـ في فرع الطب: فإنه لم يكتف منه بالمداواة، ووصف الدواء لكل داء، بل ذهب إلى التشخيص، والتحليل، وكل أشكال المراقبة. . . وها هو يذهب إلى حقول الاستنباط. . . وإنها لها نظرية إمكانية تنشيط الدورة الدموية في جسم الإنسان، بقطع وريد. عيَّنه بين أصابع اليد اليسرى، وقد جرَّب العملية هذه، الطبيب الهندي ابن بهلة على إبراهيم بن صالح العباسي، وأعاده من غيبوبة الموت إلى انتعاشية الحركة.

ولقد ذهب الإمام إلى أبعد من ذلك بكثير؛ وهكذا رأى أن البدن الذي يعالجه بالأدواء، عليه ـ أيضاً ـ أن يدرسه بكل ما فيه من أعضاء، وما لكل عضو من وظيفة، وما لكل وظيفة من فلسفة تمجد بادىء الأكوان.

وإنه لذيذ أن نصغي إلى كل ما راحت تحدثنا به ـ باختصار ـ عملية التشريح، ينطق بها مبضع الصادق: [يتألف جسم الإنسان من اثني عشر مفصلاً، ومئتين وثمانية وأربعين عظماً، وثلاثمئة وستين عرقاً تسقي الجسد كله. . . والعظام تمسكه، واللحم يمسكها، والأعصاب تمسك اللحم. . . أما الدورة الدموية ـ وهي التي يحدثها الطعام الذي تطبخه المعدة، وتبعثه إلى الكبد فتصفِّيه بعروقها، وتحيله إلى دم يتوزع إلى

المرارة، ثم إلى الطحال، ثم إلى المثانة ـ فهي الكاملة، وإنها المتخلصة من التسمم البولي].

لا أراني ـ وقد ألهيت البحث قليلاً بشيء من التصور ـ إلا عائداً مشتاقاً إلى تلميذ الإمام ـ المفضل ـ لأجده ماثلاً ـ أبداً ـ في حضوره المؤنق: يصغي، ويكتب، من دون أن يملّ، ومن دون أن يتعب... لأن العمل الذي هو إليه المنتدب: طويل لا تنتهي به الصفحات، ولا تملُّ منه الرغبات، فهو من الحياة ذاتها، امتداد رغباتها على امتداد صفحاتها في وجود الإنسان... وبالتخصيص، إنسان الأمة المنتمي إليها الإمام، لتوجيه رغباتها إلى ما هو عزٌّ لها: يبنيها، ويطورها، وهو ينقذها: من جهل، ومن مجاعات، وهو يوصلها إلى كل ما هو: إباء، ومجد، وحصون كرامات!!! أليس الإمام هو الموجَّه، ليكون الموجِّه ـ منذ أن فتح عينيه على هذا الوجود ـ لتحقيق هذه النجاوات للأمة النائمة في ادلهمام العتمات!!!

والجامعة التي هي الآن بين يديه: سطوع علم، وسطوع فلسفة، وسطوع جهد، وسطوع فيزياء وكيمياء، وهندسات، وإنتاج يشد إلى خلق وإبداع... أليست هي لساناً يتكلم بمصلحة الأمة المسحوبة من عتمات الظلمة إلى بهجة من نور يضيء دروب الأمة بقاء استمراره ضوءاً تتضاعف ـ دوماً ـ له الأسلاك فلا تخبو؟!!

لا حاجة إلى زيادة في الترداد... جلّ ما في الأمر أن الإمام كان عميق الشعور بأنه هو ـ بالذات ـ كان كثافة لا بد منها في جمع العلوم وحشرها في جيوب نفسه، لا ليشكو منها تعباً، بل ليرتاح سعيداً إليها ترمِّم نقصاً لا تزال تشكو منه الأمة، حتى ولو راحت تتمتع الآن بتخصصات أربعة آلاف أستاذ، نوَّرتهم فروع العلم بمفاهيمها! لقد اعتبرهم عدداً ضئيلاً في حاجة الأمة ـ لنقلها ـ فعلاً إلى هالة نور، وإن الأمة هي المحتاجة ـ أبداً ـ إلى امتداد الجامعة إلى عدة جامعات أخريات، تحتضنها

الأجيال الآتية باستمرار، حتى يبقى العلم مستمراً في الاستزادات منه، من دون أن يغنيه كسل يجمده، فيخبو!!!

والأساتذة الأربعة آلاف؟! فإنهم لم يكونوا - في اعتماد الإمام - رسلاً موجَّهين لإتمام مهمات أوسع من الاهتمام بمصالح الذات... لأن الاهتمام بمصلحة الأمة - كما هو جعفر عينه - مبنيٌّ لها، وموجَّه إليها، تنقصهم لواعجها ومباهجها في بنية النفس، ولم يأخذهم بها وإليها مؤمن محرِّك كجده الإمام زين العابدين، أو كمفجر العلوم الآخر أبيه الإمام الباقر!!! من هنا، افتخر الإمام بهم كتلاميذ له، مفضلاً عليهم - جميعاً - تلميذاً آخر: بريئاً وصافياً كقطعة بلور - لا ليأخذ العلم الذي حققه الإمام وأحرزه، بعد أن توسع به، واستزاد منه بلا انقطاع، ليستعين به - هذا المملى عليه - أو ليحتجزه لذة في عبه!!! أبداً - لم يكن هذا هو القصد من أفعل التفضيل، بل كان القصد النبيل: أن يجعل الفتى قرطاساً أصيلاً - كذلك القرطاس الذي جهّزه له الكيماوي جابر: يدوم ولا يحترق - لتسجيل علم «جعفري» لم يكن جليلاً إلا بنسبة ما كان تعبيراً عن حاجة أمة الى كل ما هو: علم مرجّى، وفن مزهّى، وجمال أنيق الهدب سخي بالذكاء.

ما أظن الإمام الصادق كان في تمام الابتهاج ونسيان الذات، إلا عندما كان يلتفتُ بتلميذه المفضَّل، مملياً عليه سلسلة المواد المبنيّ عليها كتابه الوسيع «توحيد المفضل» - وكلها أدلة حسية، لها بداية من دون أن يكون لها نهاية - كالفضاء - تأخذه عينك - ابتداء - إذ تفتح جفنها، وإذ تطبقه، لا يعود له انتهاء... أما عبد الكريم بن أبي العوجاء، فإنه - منذ أن فتح عن عينه جفناً - لم يرَ إلا شكاً بفضاء، ولم يوسّعه عليه، إلا تلميذ مفضَّل راح يصغي إلى كل دليل حسي يوضح وجود الله في عين الفضاء.

أما الأدلة الحسية، فكلها يدور على محور واحد: ومعنى الشك بخالق منظم وجود الكون، وإشارة كبيرة إلى النظام الدقيق الضابط وجود

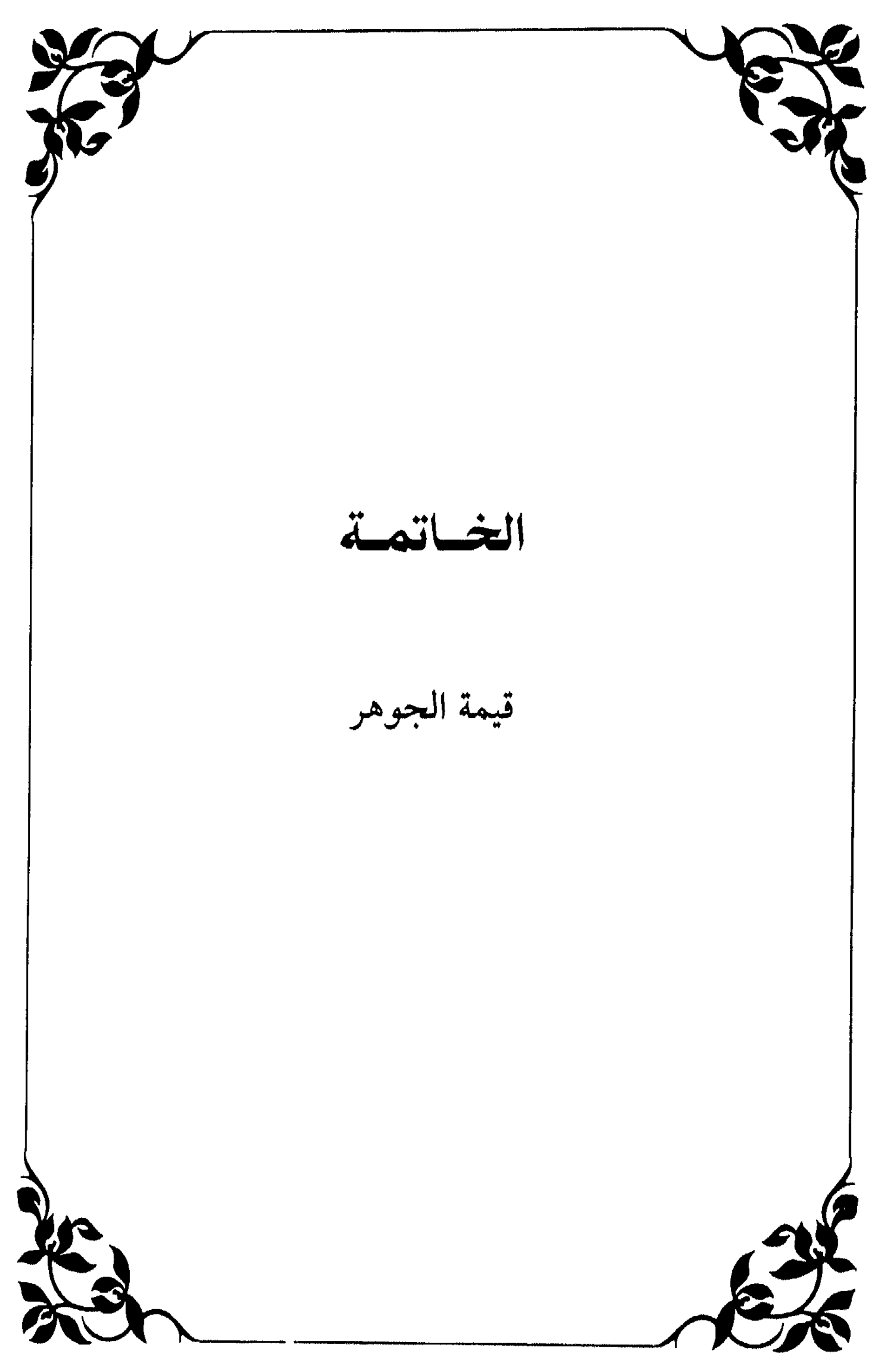
الكون. أما الكون فهو جزئيات، قبل أن ينتهي إلى كليات!!! فإذا أخذنا ـ مثلاً ـ جزءاً واحداً منه، صغيراً اسمه الإنسان ـ ورحنا إلى تلمّسه عندما كان نطفة أنزلت في رحم، فنمت إلى جنين، ثم إلى ولادة، فطفولة، ففتوة، فرجولة، فشيخوخة... إن الأحدوثة كلها ـ من أولها إلى آخرها ـ من يتمكن من شرح فاصل واحد منها ـ اسمه النطفة ـ من دون أن يتملكه العجب المحتار بتأليف مسلسلات حلقاتها التكوينية ـ التحويلية ـ التطويرية، التي كانت تنقلها من غيبة طويلة ومجذَّرة في غيب، إلى نطفة عائمة في عالم من سكون، إلى علوق في رحم مفروشة بسندس!!! إن النطفة هذه ـ قبل أن تنمو إلى إنسان، يحيِّر العقل كونها أساساً في تأليف منظومة الكون!! وذلك هو دليل محسوس يشهد أن النطفة الصغيرة. كالأجرام الكبيرة، تتوحد فيها الدلالة الحسية إلى منظم ضابط وجود الكون.

لا أرى من حاجة إلى تعداد الأدلة الحسية التي هي واحدة في جوامع الجوهر، والتي ذهب الإمام ـ رغم ذلك ـ إلى إملائها معددة كثيراً على تلميذه المفضل، وأظنه بقي طويلاً وطويلاً يسلسلها، بكل مطولاتها ومنوعاتها، على سمعه، بشرح معلل ومحلل، بقصد أن يوسعه بالمعلومات والمعارف، وأن يمتنه بثقافة الروح، ومدارج الإيمان.

بقي أن نقول: ولم يكن التسجيل، ليحتفظ به التلميذ في جوارير الخزائن، ففي الجوارير ـ هكذا ـ يغفو ويموت... بل لأن يبدأ ـ تواً ـ بنقله وإعلانه... وأن يكون: اليوم، وغداً، وكل غد آخر، أداة إعلان، وتبليغ، وإذاعة، فالأمة هي المحتاجة ـ أبداً ـ إلى تذكير ينبهها إلى كل ما هو لها في دومة التحضير، وبغير ما هو محضَّر لها لا تستفيق إلى الحاجات المسطَّرة بمساطر العلم، ومساطر التقوى، ومساطر النجوى... وفي التذكير: تجديد علم، وتجديد إفادة.

وتلميذ الإمام المزهّى بالمفضَّل، لا يجوز له أن يموت، كما لا

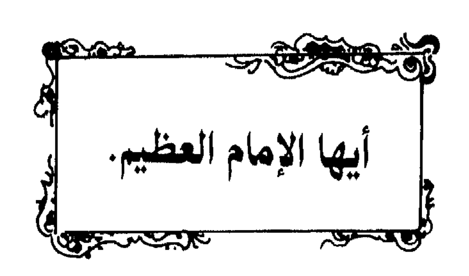
يجوز للأمة أن تموت، وكما لا يجوز للإمام الصادق إلا أن يبقى حياً . . .
كما وأن كل ما هو حق، وخير، ومنبت علم، لا يجوز أن يصمت
ويغفو . . . وإلا، فإن الدنيا كلها تخسر قيمة الجوهر!



الخـاتمـة

قيمة الجوهر





أيها الإمام العظيم.

ولم نكن ندري أنك تنوي بناء الأمة
إلا بعد أن رأيناك صقلت أهبة الذات
بكل قيمة لا يمكن أن تبنى إلا بها مطلق أمة.
وهكذا صرت:
علماً وسيعاً، وصدقاً منيعاً.
وخطاً بعيد الأفق، والنهج، والتصميم.
يربط اليوم الصغير
بالغد الكبير القادر على تلقيح المكان بالزمان النابض!
وعلمك الوسيع؟
لتتسع به الأمة ـ ولا اتساع لأمة من دون علم...
وصدقك المنيع؟
لتمتنع به الأمة ـ ولا مناعة تصفو، إلا بالصدق الأصيل.
وهكذا انبلجت في المثال:
من أجل تحقيق القدوة ـ نهجاً، وخطاً، وتصميماً...
ولن يكون ربط اليوم بالغد الأطول
إلا لأن الأمة علم لا يخصبه إلا طول في المران.
وفي المجال...

وكان المحال: يوماً صغيراً، وغداً كبيراً، ودهر من منالٍ!
أما المجال؟
فبعد أن تتم معادلة المزج: بين أضلاع المكان، وخفقات الزمان.

* * *

وأثنيت على المفضل بن عمر:
كل ما أوتيت من علم، ومن فن، ومن صدق في الخبر
وفيها أراجيز...
لا أحد غيرك وسعها عليه، أو لحنها، وغناها..
فلتكن حفراً في مشاعره... فلا تنساه، ولا ينساها...
وهكذا كنت تعلم... واجتهدت عليه ـ هكذا ـ أن يعلم:
ـ أن كل ما قلته، هو جزء مما لم تقله بعد،
وأن الأمة لن يبنيها... إلا هذا القول، والجهد، والوعد...
وبا للمفضل:
ـ لن يكون له بثٌّ... ولن يكون له غرف...
إلا عن لسانك البث، ومن بيانك الغرف...
فلتطمئن أجيال الأمة ـ إذا أخذت عنه أو منه..
فهو خيالك في المجال... وهو قصد، وهو رصد.
وهو تبليغ وتذكير:
بأن العلم ـ وحده ـ للأمة: تأخذه... ويوماً بعد يوم
تستنير.

* * *

وبقي المفضل للتبليغ والتيسير،
والإمام للتنشيط والتحضير.
ولما غفا الإمام وقد غفت الجامعة مع غفوة الإمام قال الدوانيقي:

ـ «أعلم الناس ـ في زمانه ـ الصادق»

وأكثر من ذلك لم يقل.

وبقي المفضل يذيع:

ـ «أصدق الناس ـ علماً ـ هو الصادق»

وحتى الآن لا يزال يذيع.

أما الأمة، فإنها فتحت عينها تفتش عن أربعة آلاف تلميذ:

فحدجها بعينه المفضل:

ـ لو أنهم بلغوا مئة ألف... لنلت منهم مقالاً.

ولكنهم قلة!!!

وردَّت الأمة عينها على المفضل:

ـ وهل أنت مئة ألف؟!!

وأصابها المفضل بالجواب:

ـ وكيف لا أكون أكثر؟!!

وقد أملى عليَّ الإمام جعفر؟!!

وفتح الإمام جعفر عينيه، وحتى الآن لم يطبقهما بعد...

فهو لا يزال أمل الأمة،

وسيبقى ـ أبداً ـ حياً

لأنه:

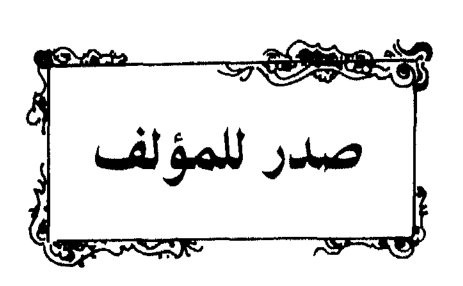
الجوهر ـ وكل قيمة الجوهر.



المراجع المستشارة

تاريخ الطبري لأبي جعفر الطبري
أعيان الشيعة محسن الأمين
الإمام الصادق أسد حيدر
الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب الدكتور نور الدين علي
عصر الإمام الصادق الشيخ باقر القرشي
الإمام الصادق محمود جواد فضل الله
دولة التشيع نجيب زبيب



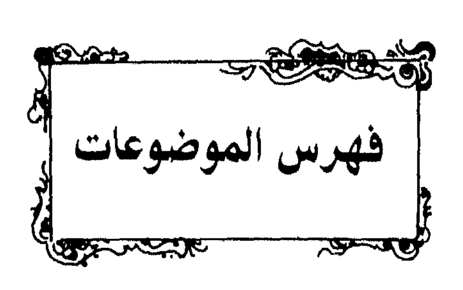


صدر للمؤلف

محمد شاطىء وسحاب	دار المرتضى
الإمام علي نبراس ومتراس	دار المرتضى
فاطمة الزهراء وتد في غمد	دار المرتضى
الإمام الحسن الكوثر لمهدور	دار المرتضى
الإمام الحسين في حلة البرفير	دار المرتضى
الإمام زين العابدين عنقود مرصّع	دار الروضة
الإمام الباقر نجيّ الرسول	دار الهادي
الإمام الصادق ضمير المعادلات	دار المرتضى

ولمؤلف كتب أخرى مطبوعة ومخطوطة.


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



فهرس الموضوعات






(مـــن المقدمـــة)
هو نبــراس رئيس ولا جدال، ومشـعـل
صـلاة، تمـجّده المـهـابـة، والـروعـة،
ومحـاريب القداسة، وحـسـبـه فـي
الإسلام من الشـجرة المثلى القائمـة
على العدل، والعلم الذي يتجسّد في
شخصيته التي تجلّت معالمها بوضوح
في الدين، وفي الفقه، وفي الفيزياء،
وفي الكيمياء، والطب، فهو جامعـة
قائمة بذاتها،ورسالة وإمامة، تجـمـع
الحرز، والجوهرة، والوعد، والباقر، وكـل
خطوط الإرتباط.
دار الثقلين
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان
بيروت - لبنان - بولفار الغبيري - خلف بنك الجمّال - بناية عبد زين فارس
ص. ب ٢٥/١٧٩ الغبيري - تلفون وفاكس ٢٧١٦٣٠ ٠٠٩٦١١